

دراسة حول ظاهرتي الفتور والانتكاس

وكيفية التعامل معهما

تأليف

مصطفى حسين عوض





1440هـ / 2019 م

اسم الكتاب: بين الفتور والانتكاس

اسم المؤلف: مصطفى حسين عوض

الطبعة: الثانية

مقاس الكتاب: 17 × 24

عدد الصفحات: 180

رقم الإيداع: 2018/26974

الترقيم الدولي: 978-977-85457-9-1



العنوان: ٣ شارع مسجد الفرقان – القناطر الخيرية – القليوبية جمهورية مصر العربية

التليفون: 01019757010 – 01102260020

website: http://tbseir.com twitter: @tabseir Fb: @tbseir

Email: tabseir@gmail.com

جدول محتويات لأبواب وفصول الكتاب

مقدمة الطبعة الثانية ٥

مقدمة ٦

تَنبيهٌ مُهِمٌّ.. ١٢

الباب الأول: الفتور.. ١٣

فصل: تعريف الفتور... ١٥

فصلٌ في حَقِيقة الإِيمانِ في القُلوبِ وأَثَر المَعصِيَة عليه.................. ١٨

فصلٌ في طَبِيعَة السَّيرِ إلىٰ اللهِ.. ٢٦

فصلٌ في أنواعِ الفُتُور ٢٦

فصلٌ في ذَمِّ الفُتور... ٣٩

فصل في أسباب الفتور ٤٧

فصلٌ في علاجِ الفُتور وكيفِيَّة التَّعامُل معه.............................. ٦٣

البابُ الثَّانِي الانتِكاسُ ٨٩

فصل في تعريف الانتِكاس ٩١

فصلٌ في أَنواعِ الانتِكاسِ ٩٦

فصلٌ الفَرْق بين الفُتورِ والانتِكاسِ ١٠٣
فصلٌ في أَسبابِ الانتِكاس عن الإِسلامِ والوِقايَة منه ١٠٦
أَسبابُ الانتِكاسِ عن الإِسلامِ ١١١
فصلٌ في أسبابِ الانتكاس عن السُّنَّة والوِقايَة منه ١٢٨
فصل في أسباب الانتِكاسِ عن الطَّاعة والوِقايَة منه ١٥١
خَاتِمَةٌ عَن الِاسْتِقامَة والنَّشاط......................................١٦٧
جدول محتويات الكتاب ١٧٥

* * *

مقدمة الطبعة الثانية

باسم الله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فمن عظيم نعمة الله علىٰ العبد أن يوفقه إلىٰ كتابة ما ينفع الله به مَن يقرأه، ثم يَمُنَّ عليه أن يرىٰ ذلك المكتوب قد نفدت طبعته، حتىٰ طُلب منه أن يكتب مقدمةً لطبعته الثانية .

والمرء يعلم أن ما يبذله إنما يبذله بتوفيق الله؛ ثم هو لا يعلم أَقَبِلَهُ الله منه أم لا، غير أنَّ ظنه بربه يدعوه إلىٰ رجاء القبول .

وهذه الطبعة الثانية من كتاب "بين الفتور والانتكاس" اللهَ أسأل أن يتقبلها، وأن ينفع بها من يقرأها، إنه سبحانه هو البر الرحيم.

وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه.

* * *

مقدمة

إنَّ الحَمدَ لله، نَحمَدُه ونَستعِينُه ونَستَغفِرُه، ونَعُوذ بالله من شُرور أنفُسِنا ومن سيِّئات أَعمالِنا، من يَهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضللْ فلا هادِيَ له، وأشهَدُ أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهَدُ أن محمَّدًا عَبدُه ورَسُوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدقَ الحَديثِ كِتابُ الله، وأَحسَنَ الهَديِ هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأُمورِ مُحدثَاتُها، وكلَّ مُحدَثَة بِدعَة، وكلَّ بِدعَة ضَلالَة، وكلَّ ضلالَةٍ في النَّارِ.

أما بعد:

فإنَّ السَّالِكَ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا لابُدَّ وأن يَعرِفَ معالِمَ الطَّريق المؤدِّي إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، وأن يَعرِفَ طَبِيعَتَه وطَبيعَة الدَّابَّة التي تحمِلُه في هذا الطَّريق، وكذا عليه أن يتعرَّف علىٰ المَخاطِر التي تَقطَع عليه طريقَهُ إلىٰ ربِّه جَلَّوَعَلَا.

فإنَّ القلب الَّذي يَحمِل الإِنسانَ وبه تَصلُح جميعُ أعضائِهِ؛ من يدٍ يَبطِش بِهَا، ورِجْلٍ يمشي بِهَا، ولسانٍ يتكلَّم به، وأُذُنٍ يسمع بِهَا.

إنَّ القلب الذي يحمل الإنسانَ له طباعٌ وآفاتٌ؛ فعلىٰ الإنسان أن يتعرَّف عليها جيدًا، وعلىٰ طُرُق عِلَاجِها إذا ما أُصيب بِهَا أَثناءَ السَّيْر إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، لِكَيْلَا يُدرِكَه الدَّاءُ فلا يَستَطِيعَ التَّعامُلَ معه فيقطَعَ عليه ما كان قد بَدَأه من سَيرٍ إلىٰ الله فيُورِدَه المَهالِكَ دُنيا وآخِرَة.

فكم ممَّن قال فيهم رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**»(١).

فما سَبَقه كِتابُه إلا بدخَنٍ في قلبه أثَّر علىٰ جَوارِحه لمَّا تمكَّن منه في آخِرِ عُمُره ولو كان طويلًا، وهذا يَظهَر في قَولِه ﷺ: «**يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو**

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، وابن حبان في «صحيحه».

لِلنَّاسِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ...»[1] الحديث.

فقد كان في قلبه دَخَن؛ إذ تَتعَب الجَوارِح في أَعمالِ أهل الجنَّة عُمُرًا طويلًا، والقَلبُ لا يُبالِي ولا يَنتَفِع بِهَا؛ إذ هي كأعمال المُنافِقين، الذين يُظهِرون ما لا يُبطِنون.

ومن أَكثَر الأَمراضِ الشَّائِعَة، بل قُلْ: من أَكثَر الأَمراضِ الشَّائِعَة المتكرِّر إِصابَةُ المَرءِ بِها، والتي لا يَخلُو منها سالِكٌ إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا: **مَرَض الفُتورِ**؛ إذ يَنشَط العبدُ ما يَنشَط فلا يَلبَثُ حتَّىٰ يُدرِكَه الفُتور، فإمَّا فُتورٌ حميدٌ كالوَرَم الحَميدِ يَسهُل التَّعامُل معه، ولا يَنتُج عنه آثارٌ مُضرة يَهلِك بسَببَها العَبدُ، وإمَّا فُتورٌ خبيثٌ لا ينجو منه العبدُ حتىٰ يُوصِلَه إلىٰ الانتِكَاس؛ عِياذًا بالله ولِياذًا بجَنابه الرَّحيمِ.

ولمَّا كان الكَسَل والفُتورُ عن أَداءِ الصَّلَوات هو وصفَ المُنافِقين في كتاب الله ربِّ العَالَمين يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

ويقول: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء:١٤٢].

وأيضًا قد عاتَب الله جَلَّ وَعَلَا بعض المُؤمِنين قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ومن أجل ذلك كان للكَسَل والفُتور والتَّثاقُل خطورةٌ عظيمةٌ؛ إذ هي أعراضٌ لأَمراضٍ متعدِّدَة، أدناها الفُتورُ الذي يَتبَع الأعمال الصَّالحة، وأشدُّها وأخَطرُها النِّفاق الأَكبَر المُخرِج من المِلَّة، وتَشخِيص الدَّاء من أهمِّ مَراحِل الدَّواء، وهاهنا تَكمُن خُطورَة العَرَض؛ فما هو إلا سِتارةٌ يَختَفِي من خَلفِها المَرَض، نسأَلُ الله السَّلامَةَ والعافِيَةَ.

إنَّ النَّاظِر في كتاب الله جَلَّوَعَلَا يجدُ المُسارَعة والمُسابَقةَ إلىٰ أَعمالِ البِرِّ والخَيرِ من صِفاتِ المُؤمِنين الذين امتَدَحهم الله ربُّ العالَمين في كتابه؛ حيث قال: ﴿ **وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣** ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال: ﴿ **سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١** ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١** ﴾ [المؤمنون: ٦١].

ومعلومٌ ما كان من مُسابَقة أبي بكرٍ الصَّدِّيق صاحِبِ رسول الله ﷺ لعُمَر الفَارُوقِ، كما ورد في الحديث الذي أخرجه التِّرمِذيُّ وأبو داود، عن عمر بن الخطاب أنه قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، وَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ، إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَىٰ أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: **«يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟»** قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقُلْتُ: لا أُسَابِقُكَ عَلَىٰ شَيْءٍ أَبَدًا.

فلمَّا كان هذا الكَسلُ هو علامَةَ المُنافِقين، وضِدُّه من النَّشاط هو علامَةَ المُؤمِنين الصَّادِقين، كان ذلك نَاقُوسَ خطرٍ يدقُّ في مَسامِع المُسلِم الصَّادِقِ، مُتسَائلًا: كيف النجاة من الكَسَل والفُتورِ؟ وكيف أتحصَّلُ علىٰ النَّشاطِ والشِّرَّة في الأَعمالِ الصَّالِحَة؟

وكذلك الِانتِكَاس، لمَّا انتشر بين المسلمين بأَنواعِه الثَّلاثَة، وهو كما هو معلومٌ -وسيأتي- أَخطَر ما يُصِيب المُسلِمَ في حَياتِه؛ إذ يُعَرِّض مَصِيرَه إلىٰ الخَطَر العَظِيم بالخُسرانِ المُبين، فكان لابُدَّ من بيانِه وبيانِ أَنواعِه وأَسبَابِه والوِقايَةِ مِنهُ.

فلمَّا كان ذَلِك كَذَلك كان لهَذَيْن المَوضُوعَين أهمِّيَّةٌ عَظِيمةٌ في دين الله جَلَّوَعَلَا، ثمَّ إنِّي لم أَقِف علىٰ مُصَنَّفات مُستَقِلَّة فيهما إلَّا علىٰ القَليلِ، رَأيتُ في أَحَدِها خلطًا بين الفُتورِ والِانتِكَاس، وَآخَرَ تَناولَ الكَسلَ والفُتورَ بغَير تَفصيلٍ أو إيضاحٍ لأنواعِه وأسبابِه، وإنَّما أكثَرَ مِن المَواعظِ مع شيءٍ مِن طُرقِ التَّغلُّب عَليه، وغَيره لم يُرتَّب تَرتيبًا يَخرُج به منه القَارئُ مُستفيدًا يَعرف ما يَنبغي عليه فِعلُه، وغَيره ما استَطَعْتُ العُثورَ علىٰ نُسخَة منه، وإنَّما وقفْتُ علىٰ اسمِه فحَسْبُ، ومُصنَّفاتٍ أُخرىٰ تناوَلَتْهُما -الفُتورَ والِانتِكاسَ- بجانب مَوضُوعاتٍ

أُخرىٰ دون تَفصيلٍ وبيانٍ؛ لِذَلِك كانت الحاجَةُ شَدِيدَةً إلىٰ مَزيدِ بيانٍ في مصنَّفٍ مُستَقِلٍّ؛ لأهمِّيَّة هذَيْن المَرَضَيْن وخُطورَتِهِما علىٰ السَّالك إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا.

ولِذَلِك كتبْتُ هذا الكِتابَ قديمًا، ولم يَخرُج إلَّا بعدما وفَّقَنا الله جَلَّوَعَلَا لذلك، ثم أَدْرَكَتْنا إدارةُ مركز «تبصير» بسَعْيِها الحَثيثِ لخِدْمة السَّائِرين في طَرِيقِ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا.

فأَخْرَجَتْه وقد كان مكتوبًا بخطِّ اليَدِ قبل ما يزيدُ علىٰ سَبْعِ سَنَواتٍ، فنَظَرْت فيه وحَذَفْتُ منه وأَضَفْتُ إليه حتَّىٰ أَصبَح كما تراه بين يَدَيْك.

والله أسألُ أن يَجعَلَه زادًا للسَّالِكين، ومُرشِدًا للتَّائِهين، ومَنهجًا للسَّائِرين يتزوَّدُون به فيُرشِدَهم إلىٰ المَنهَج القَويمِ، في التَّعامُل مع آفات القَلْبِ السَّقيم، فيحيا حياةَ الأَصِحَّاء ليُبعَثَ يوم القِيامَة معهم؛ إنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وكتب

أبو مُعاذٍ مُصطَفى بنُ حُسَين آل عَوَض

عفا الله عنه وعن وَالِدَيه وبَارَك له في ذُرِّيَّته

آمين

كان الفَراغُ من نُسخَتِه المَزِيدَة والمُنَقَّحة

فجرَ الأربعاء ٢٩ من رجب ١٤٣٨هـ

الموافق ٢٦ من أبريل ٢٠١٧ م

* * *

تَنبيهٌ مُهِمٌّ

قبل الشُّروعِ في تعريفِ الفُتورِ، وقبلَ البِدايَة في أبوابِ الكِتاب وفُصولِه، أَردتُ أن أُنَوِّهَ علىٰ أمرٍ مُهِمٍّ، أَلَا وهو:

أنَّ بعضَ المُصابِين بالفُتور والكسَل علىٰ وجهِ التَّحديد يَظنُّون أنَّهم باقْتنائِهم لكتابٍ عن الفُتور وطُرقِ التَّخلُّص منه، فإنَّهم بعد شِراءِ الكتاب سيَتعافَون مِن مَرض الفُتور، وسيُصبِحون مِن أنشطِ الناس وأكثَرِهم إقبالًا علىٰ الطاعة، وهذا في ذاتِه مِن أخطَر الأشياء، بل هو مِن أسبابِ استمرارِ الفُتور والكَسَل؛ لأنَّك لابُدَّ أن تَعرفَ أنك لن تَنشَطَ ولن تتَعافَىٰ مِن هذا التَّثاقُل والكسَل إلا إذا بَذَلْتَ لذلك ما يَنبغي عليك بَذْلُه.

فلَيس في هذا الكتابِ سِحْرٌ ولا شَعوذةٌ، ولن تَجِدَ فيه تَعويذَةً تَقرَؤها لتُحولِّك مِن فاترٍ كسُول إلىٰ نَشيط يُسارع إلىٰ الخَيرات، ولكن ستَجِد إرشاداتٍ إذا ما اتَّبعتَها فإنك -بإذن الله وَحْده- ستَتعافىٰ مما تُعانِيه.

فعليك أنْ تَقرأ لتعملَ ليَهديك ربُّك سبيلَه المُستَقيم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الباب الأول

الفتـــــور

فصل: تعريف الفتور

تعريف الفتور لغة:

جاء في «أساس البلاغة»:

«فَتَر: أَجِدُ في نَفسِي فَتْرَة وفُتُورًا؛ إذا سَكَن عن حِدَّته ولان بعد شِدَّتِه. وتقول: فُلانٌ عَلَتْه كَبْرَه، وعَرَتْه فَتْرَه.

ومن المجاز: فَتَر البَردُ والماءُ الحَارُّ، وكان الماء حارًّا ففَتَرْتُه. وفَتَر العامِلُ عن عَمَله: قصَّرَ فيه. وفتَّره غَيْرُه. وفَتَر السَّحابُ؛ إذا تحيَّر لا يَسِيرُ وتَهيَّأ للمَطَر»[1].

وجاء في «لسان العرب»:

«فَتَر: الفَتْرَةُ: الِانكِسَار والضَّعفُ. وفَتَر الشيءُ والحَرُّ وفلانٌ يَفْتُر ويَفْتِر فُتُورًا وفُتارًا: سَكَن بعد حِدَّة ولانَ بعد شِدَّة»[2].

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

---

(١) «أساس البلاغة» صفحة (٧٠٢).

(٢) «لسان العرب» (٥/ ٤٣).

قال العلامة السعدي في تفسيره لهذه الآية:

«﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ أي: مُستَغرِقين في العِبادَة والتَّسبيحِ في جَميعِ أَوقاتِهِم فليس في أَوقاتِهِم وقتٌ فارِغٌ ولا خَالٍ منها، وهم علىٰ كَثرَتِهم بِهَذِه الصِّفَة، وفي هذا من بيانِ عَظَمتِه وجَلالَةِ سُلطانِهِ وكمالِ عِلْمِه وحِكْمَتِه، ما يُوجِب ألَّا يُعبَد إلا هو، ولا تُصرَفَ العِبادَةُ لغَيرِه».

وإذن؛ فمعنى الفتور اصطلاحًا:

الفتور: هو الكَسَل عن الطَّاعَة واستِثقَالُها، ممَّا قد يَصِل بالعَبدِ إلىٰ تَرْكِ كثيرٍ من الطَّاعاتِ المُستَحَبَّة والمَندُوبة، وربَّما يَصِل الأَمرُ إلىٰ تَرْك الوَاجِبات بل الفَرائِضِ، وهذه كُلُّها دَرَكات بَعضُها تَحتَ بعضٍ.

وسوف يأتي التَّفصِيل فيها في أَنواعِ الفُتور بعَونِ الله جَلَّوَعَلَا.

ويُعَضِّدُ هذا الكلامَ ما جاء عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي فَقَدِ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**»[1].

وإذن؛ فالفُتورُ يَتبَع النَّشاطَ، ومنه ما ليس مُضِرًّا ولا مُهلِكًا للعَبدِ، ومنه ما

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، وابن حبان في «صحيحه»، وهو صحيح علىٰ شرط الشيخين.

هو مُضِرٌّ ومُهلِكٌ للعَبدِ، وسيأتي التَّفصِيل في ذلك في أَنواعِ الفُتورِ، نَسأَلُ اللهَ السَّلامَةَ والعافِيَة.

* * *

فصلٌ في حَقِيقة الإِيمانِ في القُلوبِ وأَثَر المَعصِيَة عليه

اعتِقَاد أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَة في الإِيمانِ أنَّه يَزِيد ويَنقُص؛ يَزِيد بالطَّاعَة ويَنقُص بالمَعصِيَة، وهذا ما ثَبَت في الكِتابِ والسُّنَّة وآثَارِ السَّلَف، وقد أَجمَع أهلُ السُّنَّة والجَماعَة علىٰ ذَلِك.

ومن أدلتهم ما يلي:

قَولُ الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢].

قال تعالىٰ: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف: ١٣].

وقوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

وأما من السنة: ففي جَوابِ رسول الله ﷺ علىٰ حَنظَلَةَ -رِضوَان الله عليه-، وهو ما جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم في «صحيحه»:

عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ -وكَان مِن كُتَّابِ رسُولِ اللهِ ﷺ- قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ! قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا! قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَىٰ مِثْلَ هَذَا.

فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ؛ سَاعَةً وَسَاعَةً!**» ثَلاثَ مَرَّاتٍ[(١)].

وقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ؛ فَاسْأَلُوا اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (٢٧٥٠).

(٢) صححه الألباني، انظر حديث رقم: (١٥٩٠) في «صحيح الجامع».

وقد بوَّب البخاري بابًا في كتابه وسماه:

«باب زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾، وَقَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فَإِذَا تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الْكَمَالِ فَهُوَ نَاقِصٌ».

وقد قال صاحب «العقيدة السفارينية» رحمة الله عليه:

إيمَانُنَــا قَــولٌ وقَصْــدٌ وَعَمَــلْ يَزِيــدُ بــالتَّقْوَىٰ ويَــنقُص بالزَّلَــلْ

والأَدِلَّة من كتابِ الله وسُنَّة رسول الله ﷺ وأَقوالِ الصَّحابَة والسَّلَف ومَن تَبِعَهم بإِحسانٍ، وكذلك من الحِسِّ والوَاقِع أكثَرُ من أن تُحصىٰ.

وسببُ وَضْعي لهذا الفَصلِ في كتابٍ عن الفُتورِ والاِنتِكَاس: هو حديثُ حَنظَلَة نَفسُه، والذي هو في ذَاتِه دليل علىٰ أنَّ الإيمانَ يَزِيد ويَنقُص، والذي مرَّ ذِكْرُه، ونصُّه:

عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ -وكَان مِن كُتَّابِ رسُولِ اللهِ ﷺ- قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ! قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا تَقُولُ: قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا! قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَىٰ مِثْلَ هَذَا.

فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ؛ سَاعَةً وَسَاعَةً!**» ثَلاثَ مَرَّاتٍ.

ومَواطِن الشَّاهِد في الحَديثِ ما يلي:

١ - قَولُ حَنظَلَةَ رِضوَان الله عليه عن نفسه: «نافَقَ حَنظَلَةُ»، وقول أبي بكرٍ: «إنَّا لَنَلْقَىٰ مِثلَ هذا».

ومنه يُستخْلَص خُطورَةُ عدم مَعرِفة حَقِيقَة الإِيمانِ وطَبِيعَتِه في القُلوبِ؛ إذ قد يَصِل الإِنسانُ إلىٰ حالَةٍ مِنِ اتِّهامِ النَّفسِ ممَّا قد يُوَرِّطُه في المَهالِك، فيرىٰ أنَّه إذا ما زاد إِيمانُه وقلَّ، ونَشِطَ وفتَر يرىٰ أنَّه بذَلِك مُنافِقٌ، فيَسعَىٰ إلىٰ ضِدِّ ذَلِك من نشاطٍ لا كَسَل فيه، وزِيادَةٍ في الإِيمانِ لا يَعتَرِيها نُقصانٌ، فلا يَستَطِيع إلىٰ ذَلِك سَبيلًا، فيَصِل إلىٰ القُنوطِ من رَحمَة الله فيَهْلِك.

٢ - قَولُ الرَّسُول ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا**

حَنْظَلَةُ؛ سَاعَةً وَسَاعَةً!».

وفيه دلالة علىٰ حَقِيقة الإِيمانِ وتَأثِيرِه في النُّفوسِ؛ إذ يَزدادُ فتَنشَطُ الرُّوحُ إلىٰ كلِّ خيرٍ، وكأنَّها ترىٰ الجنَّة والنَّار، ويَقِلُّ فتَفتُر النُّفوس، وبِهَذا الجَواب عَلِم حَنظَلَةُ، وكذا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ -رضوان الله عليهما- أنَّ ما يَعتَرِيهِما من تغيُّرٍ في الحال من نشاطٍ لفُتورٍ، ومن إِقبالٍ علىٰ الآخِرَّة، وغضِّ الطَّرْف عن الدُّنيا، ثم إقبالٍ علىٰ الدُّنيا وانشِغَال ببَعضِ مَتاعِها، عَلِمَا بِهَذا الجواب أنَّ ما يَعتَرِيهِما ممَّا مرَّ ما هو إلَّا طَبِيعةُ الإيمان في النُّفوسِ، وأنَّ ذلك يقع للمُؤمِنين جميعًا ولا يُعَدُّ من النِّفاق في شيءٍ، بل إنَّ تحسُّسَ الإيمانَ، زيادةً ونقصًا من صِفاتِ المُؤمِنين المُخلِصِين لله رَبِّ العَالَمين.

فالمَرءُ يحتاج في سَيرِه إلىٰ الله إلىٰ هِمَّة تُسَيِّره وتُرَقِّيه، وعِلمٍ يُبَصِّره ويَهدِيه، وليس إلىٰ هِمَّة وفقط، ولا إلىٰ عِلمٍ وفقط، وإنما إلىٰ هِمَّة تنفُضُ عنه الفُتُور والكَسَل، وعِلمٍ يُرشِدُه إلىٰ الطَّريق الصَّحيح؛ لكيلا يَبذُلَ جُهدًا في غَيرِ طريقٍ، إذ لو سَار بلا علم فهو مُتَخَبِّطٌ ولابدَّ.

وكما مرَّ، لو جَهِل الإنسانُ حقيقةَ الإِيمانِ من زيادةٍ ونُقصانٍ، وما يتَرتَّب عليهما في النَّفس البشرِيَّة من نشاطٍ وفتورٍ، لَبَحث عن الكمالِ والعِصمَة، وهَيهات أن يَصِل إلىٰ ما لا يَستَطِيع؛ إذ لم يَعصِمِ اللهُ من البَشَر إلَّا الرُّسُلَ، فالنَّقصُ وارِدٌ لا مَحالَةَ، قال رَسُول الله ﷺ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ**

التَّوَّابُونَ»[(١)].

وعليه؛ فإنَّ المعاصِيَ والزَّلَلَ هما سببُ نُقصانِ الإيمانِ، ولا شكَّ أنَّ آثارَ المعاصي ليست مُتَساوِيَة، فكلَّما زادت المَعصية زاد أَثَرُها علىٰ العَبدِ بإنقَاصِها لإيمانِه.

وقد قسَّم العُلَماء المعاصِيَ والذُّنوبَ إلىٰ: كبائِرَ، وصغائِرَ، فليس النَّظرُ إلىٰ الحرام كقَتلِ النَّفسِ، بل إنَّ الكبائِرَ نفسها تتفاوت وليست في دَرْكَة واحِدَةٍ، فليس الشِّركُ بالله -والذي هو أكبَرُ الكبائِرِ علىٰ الإطلاق- كالغِيبَة أو النَّمِيمَة، وهما من كبائِرِ الذُّنوب.

فَلْيَحْذَرِ الإنسانُ علىٰ نَفسِه وعلىٰ إِيمَانِه، ولْيَعْلَمْ أنَّ ما يَفعَلُه من خيرٍ وشرٍّ وحسنةٍ وسيئةٍ كلُّ ذلك له من الآثارِ الواقِعَة عليه في الدُّنيا قبل الآخِرَة، ومَن وقع في ذنبٍ حريٌّ أن يقعَ في آخَرَ، ومَن قام بحَسَنة فحريٌّ به أن يقوم بأُختِها، كما قيل: «إنَّ الحَسَنة تقول: أين أُختِي؟ أين أُختِي؟ وإنَّ السَّيِّئة تقول: أين أُختِي؟ أين أُختِي؟».

وأختِمُ هذا الفصلَ بكلامٍ ماتِعٍ لشَيخِ الإِسلامِ ابنِ القيِّم رحمة الله عليه:

«ومن عُقوباتِها [أي: المعاصي] أنَّها تجعل صاحِبَها من السِّفْلَة بعد أن كان مُهَيَّأً لِأَنْ يكون من العِلْيَة؛ فإنَّ الله خَلَق خَلْقه قِسمَيْن: عِلْيَة، وسِفْلَة، وجعل

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم، وحسنه الألباني.

عِلِّيِّين مُستَقَرَّ العِلْيَة، وأسفلَ سافِلِين مستقَرَّ السِّفْلَة، وجعل أهلَ طاعَتِه الأَعْلَيْن في الدُّنيا والآخِرَة، وأهلَ معصِيَتِه الأَسفَلِين في الدُّنيا والآخِرَة، كما جعل أهلَ طاعَتِه أكرَمَ خَلْقِه عليه، وأهلَ مَعصِيَته أهونَ خَلْقِه عليه، وجعل العِزَّة لهَؤُلاءِ، والذِّلَّة والصَّغارَ لهَؤُلاءِ، كما في «مسند أحمد» من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**».

فكُلَّما عَمِل العبدُ معصيةً نزل إلىٰ أسفَلَ درجةً، ولا يزال في نُزولٍ حتَّىٰ يكونَ من الأَسفَلِين، وكُلَّما عَمِل طاعةً ارتَفَع بِها درجةً، ولا يزال في ارتِفَاع حتَّىٰ يكونَ من الأَعْلَيْن.

وقد يجتَمِع للعَبدِ في أَيَّام حياتِه الصُّعودُ من وجهٍ، والنُّزول من وجهٍ، وأيُّهما كان أغلَبَ عليه كان من أهلِهِ؛ فليس مَن صَعِد مائةَ درجةٍ ونزل درجةً واحِدَةً، كمَن كان بالعَكسِ.

ولكنْ يَعرِض هاهنا للنُّفوس غلطٌ عظيمٌ، وهو أنَّ العبدَ قد ينزِل نُزولًا بعيدًا أبعدَ ممَّا بين المَشرِق والمَغرِب، وممَّا بين السَّماء والأَرضِ، فلا يَفِي صُعودُه ألفَ درجةٍ بِهَذا النُّزول الواحِدِ، كما في الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا**

بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ». فأيُّ صُعودٍ يُوازِن هذه النَّزْلَةَ؟!

والنُّزول أمر لازِمٌ للإنسان، ولكنْ من النَّاس مَن يكون نُزولُه إلىٰ غَفْلَة، فهذا متىٰ استيَقَظ من غَفْلَتِه عاد إلىٰ دَرَجَتِه، أو إلىٰ أرفَعَ منها بحَسَب يَقَظَتِه.

ومنهم مَن يكون نُزولُه إلىٰ مباحٍ لا ينوي به الاستِعَانة علىٰ الطَّاعة، فهذا متىٰ رَجَع إلىٰ الطَّاعة فقد يعود إلىٰ دَرَجته، وقد لا يَصِل إليها، وقد يرتَفِع عنها؛ فإنَّه قد يعود أَعلَىٰ هِمَّةً ممَّا كان، وقد يكون أضعَفَ هِمَّة، وقد تعود هِمَّتُه كما كانت.

ومنهم مَن يكون نُزولُه إلىٰ معصِيَة، إمَّا صغيرةٍ أو كبيرةٍ؛ فهذا يحتاجُ في عَودِه إلىٰ درجَتِه إلىٰ توبةٍ نَصوحٍ، وإنابَةٍ صادِقَةٍ»[(١)].

* * *

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» صفحة (٨٦).

فصلٌ في طَبِيعَة السَّيرِ إلى اللهِ

قال شيخُ الإسلام ابنُ القيِّم - رحمة الله عليه - في كتابه «مَدارِج السَّالكين بين مَنازِل إيَّاك نَعبُد وإيَّاك نَستَعِين»:

«والقَصدُ: أن إِضاعَة الوَقتِ الصَّحيح يدعو إلىٰ دَرْك النَّقِيصَة؛ إذ صاحِبُ حِفْظِه [أي: صاحِبُ حفظِ الوَقتِ] مُتَرَقٍّ [يَصعَدُ] علىٰ دَرَجات الكَمالِ، فإذا أَضاعَه [أي: أَضاعَ وَقتَه] لم يَقِفْ مَوضِعِه، بل يَنزِل إلىٰ دَرَجاتٍ من النَّقصِ، فإن لم يَكُن في تقدُّمٍ فهو متأخِّرٌ ولابدَّ.

فالعَبدُ سائِرٌ لا واقِفٌ، فإمَّا إلىٰ فوقَ، وإمَّا إلىٰ أسفلَ، إمَّا إلىٰ أمامَ وإمَّا إلىٰ وراءَ، وليس في الطَّبيعَة ولا في الشَّريعَة وُقوفٌ ألبَتَّةَ، ما هو إلا مراحِلُ تُطوَىٰ أسرَعَ طيٍّ إلىٰ الجنَّة أو النَّار، فمُسرِعٌ ومُبطِئٌ، ومتقدِّمٌ ومتأخِّرٌ، وليس في الطَّريق واقِفٌ ألبَتَّةَ، وإنَّما يَتخالَفون في جِهَة المَسيرِ، وفي السُّرعَة والبُطءِ [ودليلُ ذلك من كتاب الله قَولُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ]: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧]، ولم يذكر واقِفًا، إذ لا منزِلَ بين الجنَّة والنَّار، ولا طريق لسالِكٍ إلىٰ غَيرِ الدَّارَيْن ألبَتَّة، فمَن لم يتقدَّمْ إلىٰ هذه بالأَعمالِ

الصَّالِحَة فهو متأخِّرٌ إلىٰ تلك بالأَعمالِ السَّيِّئة.

فإن قُلتَ: كلُّ مُجِدٍّ في طلبِ شيءٍ لابدَّ أن يَعرِض له وَقفةٌ وفُتورٌ، ثم يَنهَض إلىٰ طَلَبه.

قلتُ: لابدَّ من ذلك، ولكنْ صاحِبُ الوَقفة له حالان:

- إمَّا أن يَقِف ليُجِمَّ نَفْسَه، ويُعِدَّها للسَّيرِ، فهذا وَقفَتُه سَيرٌ، ولا تَضُرُّه الوَقفَةُ، فإنَّ لكُلِّ عملٍ شِرَّةٌ، ولكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ.

- وإمَّا أن يقفَ لداعٍ دعاه من وَرائِه، وجاذِبٍ جَذَبه من خَلْفِه، فإن أجابه أَخَّره ولابدَّ، فإنْ تدارَكَه الله برَحمَتِه، وأَطلَعَه علىٰ سَبْق الرَّكْب له وعلىٰ تأخُّرِه؛ نَهَض نَهْضَةَ الغَضبانِ الآسِفِ علىٰ الانقِطَاع، ووَثَب وجَمَزَ واشتَدَّ سعيًا لِيلحَقَ الرَّكْبَ، وإن استمَرَّ مع داعي التَّأَخُّر وأصغىٰ إليه لم يرض بردِّه إلىٰ حالَتِه الأُولىٰ من الغَفلَة، وإِجابَة داعي الهَوَىٰ، حتَّىٰ يَرُدَّه إلىٰ أسوأَ منها وأنزلَ دَرْكًا، وهو بمَنزِلَة النَّكسَة الشَّديدَة عَقِيبَ الإِبْلالِ من المَرَض، فإِنَّها أَخطَرُ منه وأَصعَبُ.

وبالجُملة: فإنْ تدارَكَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذا العبدَ بجَذْبة منه من يَدِ عدوِّه وتَخلِيصِه، وإلَّا فهو في تأخُّرٍ إلىٰ المَماتِ، راجِعٌ القَهقَرَىٰ، ناكِصٌ علىٰ عَقِبَيْه، أو مُوَلٍّ ظَهْرَه، ولا قوَّة إلا بالله، والمَعصُوم مَن عَصَمه الله»(١).

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» صفحة (٢٧٨، ٢٧٩).

فصلٌ في أنواعِ الفُتُور

بعدما مرَّ معنا ذِكْرُ معنىٰ الفُتور وبَيانِ حَقِيقَتِه من أنَّه يُصِيب العبدَ السَّائِرَ إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا، فمنه فُتورٌ حميدٌ ينجو صاحِبُه من الآثار الجانِبِيَّة السَّلبِيَّة للفُتور؛ إذ هو من المُهتَدِين، ومنه ما هو خَبيثٌ، لا ينجو صاحِبُه إلَّا أن يُوَفِّقَه الله جَلَّ وَعَلَا للقَضاءِ علىٰ هذا الفُتُور بالسَّعيِ الجادِّ بنشاطٍ وهِمَّةٍ خَلْفَ أسبابِ العِلاجِ منه، إلىٰ النَّشاطِ والهِمَّة والإقبالِ علىٰ الطَّاعة والبُعد عن المَعصِيَة.

وتفصيل ذلك وبيانه فيما يلي:

أنواع الفتور:

١ - فُتورٌ عارِضٌ حميدٌ.

وهو فُتور يَعرِض للسَّائِرِ إلىٰ الله بعد عملٍ صالِحٍ قام به بِهِمَّة ونشاطٍ، فيَعرِض له الفُتور، كالتَّعب يَحُلُّ علىٰ البَدَن بعد يومٍ شاقٍّ من العَمَل.

وهو الفُتور الوارِدُ في الحديث: عن عبد الله بن عمرو: أنه تزوَّج امرأةً من قريشٍ فكان لا يأتيها؛ كان يَشغَلُه الصَّوم والصَّلاة، فذُكِر ذلك للنَّبيِّ ﷺ.

فقال ﷺ: «**صُمْ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ**».

قال: إنِّي أُطِيقُ أكثَرَ من ذلك، فما زال به حتَّىٰ قال له: «**صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا**».

وقال ﷺ له: «**اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**».

قال: إنِّي أُطِيقُ أكثَرَ من ذلك.

قال: «**اقْرَأْهُ فِي كُلِّ خَمْسَ عَشْرَةَ**».

قال: إنِّي أُطِيقُ أكثَرَ من ذلك.

قال ﷺ: «**اقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ**»... حتىٰ قال: «**اقْرَأْ فِي كُلِّ ثَلَاثٍ**».

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً؛ فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**»(١).

ونَستَخْلِص من الحَديثِ ما يلي:

أ- نشاطُ وهِمَّةُ عبدِ الله بنِ عمرٍو رِضوَان الله عليه وعلىٰ أَبِيه؛ إذ كان مُقبِلًا علىٰ العِبادَة لا يلتَفِت عنها، حتَّىٰ إنَّه بعدما تزوَّج لم يَكُن يأتِي أهلَه بسَبَب انشِغَالِه بالعِبادَة وإِقبالِه علىٰ ربِّه جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) أخرجه أحمد وغيره، واللفظ له، وهو حديث صحيح.

ب- النَّبيُّ ﷺ راجَعَه في بعضِ ما يَفعَل، وأَرشَدَه إلىٰ الحدِّ الفاصِلِ والمِقدَار الأَمثَل للعِبادَة بعيدًا عن الغُلُوِّ أو الجَفاءِ.

ج- النَّبيُّ ﷺ لم يَكتفِ بأنَّه أَرشَدَه إلىٰ ما ينبغي عليه من عملٍ دُون زيادةٍ أو غُلُوٍّ، بل دلَّه علىٰ أنَّه لكُلِّ عملٍ وعبادةٍ نشاطٌ وإقبالٌ، فقال: «**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ**» يعني: لكلِّ عملٍ تقومُ به نشاطٌ وهِمَّة عالِيَة، فيَنبَغِي أن يكون نَشاطُك بلا غُلُوٍّ ولا زِيادَة عن الحدِّ الذي حدَّه الرَّسُول ﷺ، ولم يَكتَفِ بِهَذا -صلواتُ الله عليه- بل زاده بزِيادَةٍ لم يُسأَلْ عنها، وهي تحذيرٌ وبيانٌ لكلِّ سالكٍ إلىٰ الله، مُقبلٍ علىٰ الأعمال الصَّالِحَة أن يَحذَرَ من هذا العَرَض الذي يَتبَع كلَّ عَمَل، وهو الفُتور، فقال ﷺ: «**لِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ**»؛ فانتَبِهْ أيُّها السالِكُ إلىٰ الله، فإنَّ نشاطَكَ في عِبادَة ربِّك سيَتْبَعه فُتورٌ لا مَحالَةَ «**لِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ**».

ثم قال ﷺ: «**فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**»؛ يعني: كما وَضَع لنا رَسُول الله ﷺ حدًّا في العِبادَة ينبغي أَلَّا نزِيدَ عليه حالَ النَّشاطِ والهِمَّة، فكَذَلِك وَضَع لنا حدًّا ينبغي علينا ألا نُقَصِّر دُونه حالَ الفُتورِ والكَسَل.

وفي رِوايَة أُخرىٰ جاءت في «مسند الإمام أحمد» أيضًا:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رِجَالٌ يَجْتَهِدُونَ فِي

الْعِبَادَةِ اجْتِهَادًا شَدِيدًا، فَقَالَ: «**تِلْكَ ضَرَاوَةُ الْإِسْلَامِ وَشِرَّتُهُ، وَلِكُلِّ ضَرَاوَةٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ الْمَعَاصِي فَذَلِكَ الْهَالِكُ**»(١).

ومعنىٰ قوله ﷺ: «فَلِأُمٍّ مَا هُوَ»: كما قال السِّنْدِيُّ:

«الظَّاهِر أنَّ (الأُمَّ) بضمِّ الهَمزَة وتشديد المِيم بمَعنَىٰ الأَصلِ، و«ما» للإِبْهَام، قَصَدَ به إِفادَة التَّعظيم؛ أي: فهو لأُمٍّ ما، أي: فهو إلىٰ أصلٍ عظيمٍ رَجَع، وقيل: بفتح الهمزة، بمعنىٰ قَصْدِ الطَّريق المُستَقيم»(٢).

ونعود مرَّة أخرىٰ للرِّوايَة الثانية، والتي يوضِّح فيها الرَّسول ﷺ الفَرْقَ الواضِحَ والحدَّ الفاصِلَ بين الفُتور الحميدِ والفُتور الخبيثِ، حيث قال ﷺ: «**فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ الْمَعَاصِي فَذَلِكَ الْهَالِكُ**».

وإذن؛ فقد حَصَلْنا علىٰ تصنيفٍ للفُتور وبيانِ نَوعَيْه ببيانٍ نبويٍّ شريفٍ:

فالأول -وهو ما نَتناوَلُه في هذا القِسمِ-: «الفُتور الحَمِيدُ».

---

(١) أخرجه أحمد وغيره، واللفظ له، وصححه العلامة شعيب الأرنؤوط حديث رقم: (٦٥٣٩).

(٢) «حاشية المسند»، ط الرسالة (١١/ ٩٩).

وصِفَته كما جاءَت في الأَحادِيث الوارِدَة ما يلي:

١– هو فُتورٌ يَتبَع كلَّ عملٍ صالِحٍ أدَّاه العَبدُ بِهِمَّة ونشاطٍ، سواءٌ تَبِعه مُباشَرَة أو بعد حِينٍ، إلَّا أنَّه لا مَحالَةَ سيَتبَع كلَّ نشاطٍ للعَبدِ بالأَعمالِ الصَّالِحَة فُتورٌ.

٢– هذا الفُتور الحميدُ لا يدفَعُ العبدَ إلىٰ التَّقصِير الذي يُعاقَب عليه، فلا يُقعِده عن فرضٍ، ولا يُثقِلُه عن واجِبٍ، ولا يدفَعُه إلىٰ مَعصِيَة فضلًا عن كبيرةٍ، وإنَّما غايَةُ ما هُنالِك أن يَقتَصِر العبدُ حالَ فُتورِه هذا علىٰ الواجِبَات والفَرائِض مع البُعد عن الذُّنوبِ والمَعاصي، وأمَّا عند النَّوافلِ والمَندُوبات فيَجِد ثِقَلًا ويَجِد كَسَلًا ويَجِد عَدَمَ إقبالٍ بجَسَدِه علىٰ العملِ وربَّما بقَلبِه، وإن كان يتمنَّىٰ القِيامَ بِهَذه الأَعمالِ الصَّالِحَة غيرَ أنَّه يَجِد فُتورًا عنها وزُهدًا فيها.

وسيأتي في «فصل علاج الفُتور» كيفِيَّةُ التَّعامُل مع هذا النَّوع من الفُتور إن شاء الله ربُّ العالمين.

والثاني: فُتور عارِضٌ خبيثٌ.

وممَّا مرَّ من بيانٍ للرِّوايَات الوارِدَة في حديث: «**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّة فَتْرَةٌ**» يتَّضِح أنَّ الفُتور يَعرِضُ؛ فإمَّا أن يَتعامَل معه السَّالِكُ إلىٰ الله مُعامَلَةً صَحِيحَة، فيُبقِيه علىٰ حاله فتورًا حميدًا محمودًا صاحِبُه، وإمَّا أن يتعامَلَ معه بغير الطَّريقَة الصَّحيحة فيُحَوِّلَه إلىٰ فُتورٍ خبيثٍ مَذمومٍ صاحِبُه.

وهو -كما مرَّ- فُتورٌ يَعرِض للعَبدِ بعد أعمالِ البِرِّ فيُثقِلُه، فإذا ما أصبَحَت الحالَةُ كما وَصَفها الرسول ﷺ: «**فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ**» فهي لم تتخطَّ بعدُ حاجِزَ الخَطَر، ولم يقعْ صاحِبُها في الفُتورِ الخَبيثِ المُهلِكِ للعَبدِ، حتَّىٰ يَصِل إلىٰ الحالَةِ الثَّانية، وهي: «**وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ الْمَعَاصِي فَذَلِكَ الْهَالِكُ**».

وإذنْ؛ فعلامَةُ الفُتورِ الخَبيثِ أن يتحوَّل من حالِ الطَّاعَة إلىٰ حالِ المَعصِيَة، ومن حالِ الإقبالِ علىٰ الخَير قلبًا وقالَبًا إلىٰ حالِ التَّقصير في الفَرائِض والواجِبَات.

الثالث: فُتورٌ شِبْهُ دائِمٍ خبيثٌ.

وهَذِه الحالة يَشكُو منها أَكثَرُ النَّاس، وهي الفُتور شِبْهُ الدَّائِم بكَسَلٍ وتَثاقُلٍ حتَّىٰ وَصَل الأَمرُ إلىٰ التَّثاقُل في الصَّلَوات الخَمسِ بل وصيامِ رَمَضان، وهو فتورٌ مركَّبٌ ناتِجٌ عن الفُتور السَّابِقِ ذِكْرُه، فيتحوَّل المَرءُ من فُتورٍ عارِضٍ خَبيثٍ يُوقِعُه أحيانًا في المعاصي ويَمنَعُه أحيانًا من الفَرائِض، يتحوَّل بسَبَب عَدَم الإِسرَاع في مُعالَجة هذا النَّوع الخَطيرِ من الفُتور إلىٰ فُتورٍ شِبْهِ دائِمٍ، فيَجِد الإنسانُ نفسَه لا يَنشَطُ إلَّا في مَواسِم الخَيرِ، بل لا يستطيع إِتمامَ موسمٍ كامِلٍ بِهِمَّة ونَشاطٍ، فتَجِده ذا هِمَّة في أوَّل شهر رَمَضان للصِّيام وقِرَاءَة القُرآن وقِيام اللَّيل، ثم لا يَلْبَثْ حتَّىٰ يفتُر.

وربَّما نَشِط مرَّةً أُخرَىٰ في نِهايَة الشَّهر، ثم لا تراه بَعدَها إلَّا في الشَّهرِ ذَاتِه من العام التالي! وهكذا تضيعُ السُّنون وتتبدَّد الأَعمارُ وهو غارِقٌ في حالَةٍ من الكَسَل شِبْهِ الدَّائِم، ولا يَعرِف سَبَبَ ذلك، بل يُقاوِم نفسَه فتَستَأسِدُ عليه فتُقعِدُه وتُثقِلُه وتَمنَعُه من الخَيرِ منعًا، عِياذًا بالله العليِّ العَظيمِ.

ولا يَدرِي المِسكينُ أنَّ ما به قد تحوَّل من كونه عرضًا ينبغي أن يُعالَج إلىٰ مَرَضٍ اختَرَق بدَنَه وتعدَّىٰ جَوارِحَه حتَّىٰ سَكَن فُؤادَه!

وهذا الفُتور الشِّبهُ دائِمٍ هو أشبَهُ ما يكون بفُتورِ المُنافِقين، نعمْ، فُتور المُنافِقين.

ألَا يَجِد صاحِبُ هذا النَّوعِ من الفُتورِ ما يَجِده المُنافِقون عندما يؤذَّن للصَّلاةِ، فلا يَستَطِيع لِهَذا النِّداء جوابًا إلَّا علىٰ كَسَل وتَثاقُل -إنْ أَجابَ-؟!

أَلَا يَجِد في نَفسِه من صِفاتِهم -أَعني: المُنافِقين- ما يجد؟! فلا يذكرُ اللهَ إلَّا قليلًا! وتَجِده في هذا الذِّكرِ القَليلِ مُتاكسِلًا يَصعُب عليه تَحرِيكُ لِسانِهِ بذِكرِ الله جَلَّ وَعَلَا!

وغَيرُ هَذِه الأَعراضِ التي فَضَح الله بِها المُنافِقين في كتابه وسُنَّة نبيِّه -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم-.

والذي جَعَلني أَضَع هذا الذي وَصَفْتُه لك في قسمٍ ثالِثٍ بعيدٍ عن القِسمَيْن السَّابِقَيْن، هو ما جاء في قَولِ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً**».

وإذنْ؛ فالفُتور على صِنفَيْن:

- صِنفٍ يَتبَع العَمَل.

- وصِنفٍ راسِخٍ في القَلبِ لا يأتِي بعد عملٍ.

والَّذي يَتبَع العَمل من الفُتور صنفان، كما جاء في حديث الرَّسولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم-: «**فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ الْمَعَاصِي فَذَلِكَ الْهَالِكُ**».

- فصِنفٌ صاحِبُه علىٰ هدًىٰ.

- وصِنفٌ صاحِبُه موصوف بالهَلاكِ.

وأمَّا الفُتور الذي لا يأتي بعد العمل، وإنَّما هو راسِخٌ في القلب فصنفان:

- صِنفٌ يَنقَشِع عن القلب أحيانًا ويَنشَط صاحِبُه؛ فهو عند ذي القَلبِ المَريضِ.

- وصِنفٌ لا يَنقَشِع أبدًا، وهو عند المُنافِقين الذين هم في الدَّرْك الأَسفَل من النَّار، وهو النَّوع الأَخيرِ من أَنواعِ الفُتورِ.

فلولا انقِشاعُ هذا الفُتورِ -الفُتورِ شِبْهِ الدَّائمِ الخَبيثِ- عن قَلبِ صاحِبِه حينًا بعد حِينٍ لكان صاحِبُه مُنافِقًا خالِصًا متوَعَّدًا بالدَّركِ الأَسفَل من النَّار، عِياذًا بالله ولِياذًا بجَنابِه الرَّحيمِ.

الرابع: الفُتورُ الدَّائِمُ (فُتورُ المُنافِقين).

وهو الذي جاءَت فيه من الآياتِ ما فَضَح الله به المُنافِقين شَرَّ فَضِيحَة؛ إذ يُبطِنون الكُفرَ ويُظهِرون الإسلامَ، فيَقُومون للصَّلاة نفاقًا وقُلوبُهم تكرَهُها، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

قال العلَّامة السِّعدِي في تَفسِيره لهَذِه الآيَة:

«يُخبِر تعالىٰ عن المُنافِقين بما كانوا عليه، من قَبيحِ الصِّفات وشَنائِع السِّمات، وأنَّ طَريقَتَهم مُخادَعةُ الله تعالىٰ؛ أي: بما أَظهَروه من الإِيمانِ وأَبطَنوه من الكُفرانِ، ظَنُّوا أنه يَرُوج علىٰ الله ولا يَعلَمُه ولا يُبدِيه لعِبادِه، والحالُ أنَّ الله خادِعُهُم، فمُجرَّد وُجودِ هذه الحالِ منهم ومَشيهِم عليها خِداعٌ لأَنفُسِهم. وأيُّ خداعٍ أعظَمَ ممن يسعىٰ سعيًا يعود عليه بالهَوانِ والذُّلِّ والحِرمَان؟!

ويدلُّ بمُجرَّدِه علىٰ نقصِ عقلِ صاحِبِه، حيث جمع بين المَعصِيَة، ورآها حسنةً، وظنَّها من العَقلِ والمَكرِ، فلِلَّه ما يصنَعُ الجَهلُ والخِذْلان بصاحِبِه!

ومِن خِداعِه لهم يومَ القِيامَة ما ذكره الله في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ

﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ...﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] إلىٰ آخر الآيات.

﴿وَ﴾ من صِفاتهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ -إنْ قَامُوا- التي هي أَكبرُ الطَّاعات العمليَّة ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ مُتَثاقِلين لها مُتبَرِّمين من فِعْلها، والكَسَل لا يكون إلَّا مِن فَقْدِ الرَّغبَة من قُلوبِهم، فلولا أنَّ قُلوبَهُم فارِغَةٌ من الرَّغبَة إلىٰ الله وإلىٰ ما عنده، عادِمَةٌ للإِيمانِ، لم يَصدُر منهم الكَسَل، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: هذا الذي انطَوَت عليه سَرائِرُهم، وهذا مصدَرُ أَعمالِهم، مُراءَاةُ النَّاس، يَقصِدون رُؤيَةَ النَّاس وتَعظِيمَهم واحتِرامَهُم ولا يُخلِصون لله؛ فلهذا ﴿لَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ لامتلاء قُلوبِهم من الرِّياء؛ فإنَّ ذِكْرَ الله تعالىٰ ومُلازَمَته لا يكون إلَّا من مُؤمنٍ مُمتَلِئٍ قَلبُه بمحبَّة الله وعَظَمَتِه» اهـ.

ومن الآياتِ الوارِدِ فيها ذِكْرُ فُتورِ وكَسَلِ المُنافِقين، وأنَّه من أَسبابِ عدم قَبُول الله لطَاعاتِهم: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

قال العلَّامَة السَّعدِي في تفسيرِه لهَذِه الآياتِ:

«يقول تعالىٰ مبيِّنًا بُطلانَ نَفَقات المُنافِقين، وذاكِرًا السَّببَ في ذلك ﴿قُلْ﴾

لهم ﴿أَنفِقُواْ طَوۡعًا﴾ من أَنفسُكم ﴿أَوۡ كَرۡهًا﴾ علىٰ ذلك، بغَيرِ اختِيَارِكم. ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ شيءٌ من أَعمالِكم ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣﴾ خارِجين عن طاعة اللّه، ثم بيَّن صِفَة فِسْقِهم وأَعمالِهم، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ والأَعمالُ كلُّها شرطُ قَبُولِها الإِيمانُ، فهَؤُلاءِ لا إِيمانَ لهم ولا عَمَلَ صالِحٌ، حتَّىٰ إنَّ الصَّلاة التي هي أَفضلُ أعمالِ البَدَن، إذا قاموا إِلَيها قاموا كُسالَىٰ، قال: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ أي: مُتَثاقِلون، لا يكادون يَفعَلُونَها من ثِقَلِها عليهم.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ من غَيرِ انشِرَاحِ صدرٍ وثباتِ نفسٍ، ففي هذا غايَةُ الذَّمِّ لمن فعل مِثلَ فِعْلهم، وأنَّه ينبغي للعَبدِ أَلَّا يأتِيَ الصَّلاةَ إلَّا وهو نشيطُ البَدَن والقَلبِ إِلَيها، ولا يُنفِق إلَّا وهو مُنشَرِحُ الصَّدرِ ثَابِتُ القَلبِ، يرجو ذُخْرَها وثَوابَها من الله وَحدَه، ولا يتشبَّه بالمُنافِقين» اهـ.

وإذنْ؛ هو فتورُ صاحِبُ القلبِ الميِّت، الذي يُظهِر الإِسلامَ ويُبطِن سواه، عِياذًا بالله ولِياذًا به سبحانه.

وهذا النَّوع من الفُتور لسنا بحاجةٍ لِلِاستِزَادَة في بيانه وبَيانِ طُرُق عِلاجِه؛ إذ صاحِبُه يحتاجُ أن يُعِيدَ إِسلَامَه، ولَرُبَّما كان لذلك بيانٌ في مَوضِعٍ آخَرَ من كتابٍ آخَرَ، والله المُوَفِّق والمُستَعان.

* * *

فصلٌ في ذَمِّ الفُتور

قَصدْتُ بِهذا الفَصلِ الفُتورَ المَذمُومَ الذي وُصِفَ صاحِبُه بالهالِك علىٰ لسان الرَّسول ﷺ حينما قال: «**فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ الْمَعَاصِي، فَذَلِكَ الْهَالِكُ**».

وأمَّا الفُتور الحميدُ الذي يتحسَّسُه المُؤمِن في نَفسِه فيَقِف به عند حُدود الله لا يتعدَّاها، وعند أَوامِرِه فلا ينساها ولا يتكاسَلُ عنها؛ فهذا ليس داخلًا في هذا الذَّمِّ، والله المستعان.

ويكفي في ذمِّ الفُتور [المذموم] والكَسَل أنَّ الله قد وصف بأَعراضِه الظَّاهِرة المُنافِقين الكافِرين الَّذين لا يأتون الصَّلاة إلَّا وهم كُسالَىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

وما جاء في ذمِّ الإنسان في كتاب الله مِن وَصْفِه بعدَمِ الفُتور والكَسل عن طَلَب الخير لنَفسِه بينما يَفتُر عمَّا سوىٰ ذلك، بل يَقنَط من رحمة ربِّه جَلَّوَعَلَا عندما تَنزِل عليه المَصائِب! قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت: ٤٩].

قال الإمام الطبري في تفسيره مفسرًا هذه الآية :

«والخير في هذا الموضع: المال وصحة الجسم، يقول: لا يملّ من طلب ذلك.» اهـ.

بل قد عاتَبَ الله جَلَّوَعَلَا المُؤمِنين أنْ أَمَرهم بالجِهَادِ فلم يَخرُجوا في نشاطٍ وإسراعٍ مُتسابِقين للخير فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

وقد نَزَلت هذه الآيَةُ في غزوة تبوكَ في يومٍ شديدِ الحرارَةِ وصَحْراءَ شديدَةِ السُّخونَة عَدِيمَةِ المياهِ، ومع ذلك نزل هذا العِتابُ الشَّديدُ للمُؤمِنين أنْ تَثاقَل بَعضُهم إلىٰ الأرض من شِدَّة الحَرِّ والتَّعبِ.

قال الإمامُ السِّعدِي في تَفسِيره لهَذِه الآيَةِ:

«اعْلَمْ أنَّ كثيرًا من هذه السُّورة الكَرِيمة، نَزَلت في غَزوَة تبوكَ؛ إذ نَدَب النبيُّ ﷺ المُسلِمين إلىٰ غَزْوِ الرُّوم، وكان الوقت حارًّا، والزَّاد قليلًا والمَعِيشَة عَسِرَة، فحَصَل من بعض المُسلِمين من التَّثاقُل ما أوجب أن يُعاتِبَهم الله تعالىٰ عليه ويَستَنهِضَهُم، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ألَا تَعمَلون بمُقتَضىٰ الإيمان، وداعي اليَقِين من المُبادَرة لأَمرِ الله، والمُسارَعة إلىٰ رِضاهُ، وجِهادِ أَعدائِه والنُّصرة لدِينِكُم، فـ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: تَكاسَلْتُم، ومِلْتُم إلىٰ الأَرضِ والدَّعَة والسُّكون فيها.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: ما حَالُكم إلَّا حالَ من رَضِي بالدُّنيا وسعىٰ لها ولم يُبالِ بالآخِرَة، فكأنَّه ما آمن بِهَا.

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ التي مالت بكم، وقدَّمْتُمُوها علىٰ الآخِرَة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أَفَلَيْسَ قد جعل الله لكم عُقولًا تَزِنُون بِها الأمور، وأَيُّها أحقُّ بالإِيثارِ!

أَفَلَيْسَت الدُّنيا -من أوَّلِها إلىٰ آخِرِها- لا نِسْبَة لها في الآخِرَة. فما مِقدارُ عُمُر الإنسانِ القصيرِ جدًّا من الدُّنيا حتىٰ يَجعَلَه الغايَةَ التي لا غايَةَ وَراءَها، فيَجعلَ سَعْيَه وكَدَّه وهَمَّه وإِرادَتَه لا يتعدَّىٰ حياتَهُ الدُّنيا القَصيرَةَ المَملُوءَة بالأَكدارِ، المَشحُونة بالأَخطارِ.

فبأيِّ رَأْيٍ رأيتُم إِيثارَها علىٰ الدَّار الآخِرَة الجامِعَة لكلِّ نعيمٍ، التي فيها ما تَشتَهِيه الأنفُسُ وتلَذُّ الأَعيُنُ، وأنتم فيها خالدون؟! فوالله ما آثَرَ الدُّنيا علىٰ الآخِرَة مَن وَقَرَ الإِيمانُ في قَلبِه، ولا مَن جَزَل رأيُه، ولا مَن عُدَّ من أُولِي الأَلبابِ.

ثمَّ توعَّدَهم علىٰ عدم النَّفيرِ فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدُّنيا والآخِرَة، فإنَّ عدمَ النَّفيرِ في حال الِاستِنفَار من كبائِرِ الذُّنوب المُوجِبة لأشدِّ العقاب، لِمَا فيها من المَضارِّ الشَّديدَةِ، فإنَّ المُتخَلِّف قد عصىٰ الله تعالىٰ وارتكب نَهْيَه، ولم يُساعِد علىٰ نصر دين الله، ولا ذبَّ عن كتاب الله وشَرْعِه، ولا أعان إِخوانَه المُسلِمين علىٰ عَدُوِّهم الذي يريد أن يَستأصِلَهُم ويَمحَقَ دِينَهم، وربَّما اقتدىٰ به غَيرُه من ضُعَفاء الإيمان، بل ربما فَتَّ في أَعضادِ مَن قاموا بجهاد أعداء الله، فحَقِيقٌ بمَن هذا حالُه أن يتوعَّدَه الله بالوعَيدِ الشَّديدِ، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ثمَّ لا يكونوا أَمثالَكُم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ فإنَّه تعالىٰ متكفِّلٌ بنَصرِ دِينِه وإِعلاءِ كَلِمَته، فسواءٌ امتَثَلْتُم لأَمرِ الله، أو أَلقَيتُموه وراءكُم ظِهرِيًّا.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ لا يُعجِزُه شيء أرادَهُ، ولا يُغالِبُه أحدٌ» اهـ.

هذا في هذه العِبادَة التي يَصعُب علىٰ كثيرٍ من النَّاس القِيامُ بِها وهي الجِهادُ في سبيل الله، في يومٍ يَصعُب فيه النَّشاطُ والحَرَكة، في حرٍّ شديدٍ، في صَحْرَاءَ

ساخِنَةٍ مُجدِبَة، ويُعاتِبُهم الله ويُحذِّرُهم من أنَّه مَن يَتثاقَلْ عن نُصرَة الله ونُصرة دِينِه يُعَرِّض نَفسَه لِلاستِبدَالِ بأن يأتِي بقومٍ آخِرين يقومُون بما يَجِب عليهم القِيامُ به، وأمَّا مَن استَبدَلَه الله بغَيرِه فيُعَذِّبُه عذابًا أليمًا، لأنَّه تَثاقَل ولم يَقُم مُسرِعًا مُلَبِّيًا ما أَمَره الله به.

والآن: قلْ لي بربِّكَ! إن كان ذلك كَذَلِك فكيف بمَن يَتكاسَلُ ويتَثاقَل عن الصَّلاة في ليلةٍ مُقمِرَة وعنده ماءٌ بارِدٌ في الحرِّ وماءٌ ساخِنٌ في الشِّتاءِ، ومُكَيِّفاتٌ في المَساجِد، وربَّما دابَّةٌ تَحمِلُه من باب بَيتِه إلىٰ باب مَسجدِه! كيف يكون الأَمرُ في مثل هذه الحالَةِ؟!

إنَّ التَّثاقُل عن العبادة أمرٌ مُنتَشِر بين كثيرٍ من المُسلِمين، ولا أَحَد يعرف أنَّه من المُخالَفة لأَمرِ الله جَلَّوَعَلَا وأَمْر نبيِّه ﷺ، فيذهَبُ الذِّاهب إلىٰ الصَّلاة متكاسلًا وهو يظنُّ نَفسَه من المُبَشَّرين بالجنَّة في زمانه لأنَّه ذهب إلىٰ الصَّلاة في المَسجِد! ولكنَّه في الحَقِيقَة ما أقام أَمْرَ الله له بالإِسراعِ والمُسابَقَة، قال تعالىٰ: **﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾** [آل عمران: ١٣٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو

﴿ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: ٢١].

وإذنْ؛ فالأَمْرُ من الله هو الإِسراعُ في الأَداءِ لا مجرَّدُ الأَداءِ، والأَمرُ هو المُسابَقَة إلىٰ المَغفِرة، لا السَّعيُ البَطيءُ إليها.

فاللهَ أسألُ أن يَرزُقَني وإيَّاكم النَّشاطَ والهِمَّةَ والإِسراعَ والمُسابَقَةَ إلىٰ مَرضاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يَجعَل هذا الكلامَ حُجَّة لي ولمَن قَرَأه لا عَلَينا.. آمين.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رِجَالٌ يَجْتَهِدُونَ فِي الْعِبَادَةِ اجْتِهَادًا شَدِيدًا، فَقَالَ: «**تِلْكَ ضَرَاوَةُ الْإِسْلَامِ وَشِرَّتُهُ، وَلِكُلِّ ضَرَاوَةٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ الْمَعَاصِي فَذَلِكَ الْهَالِكُ**»[(١)].

وفي الحَديثِ: وُجوبُ اتِّباع الكتاب والسُّنَّة في النَّشاطِ والكَسَل، وهو مِصداقٌ لقَولِ أصحاب رسول الله ﷺ:

عن جنادة بن أبي أمية قال: «دَخَلْنا علىٰ عُبادَة بن الصَّامِت وهو مريض، فقلنا: أَصْلَحَك الله، حدِّثْ بحَديثٍ يَنفَعُك الله به سَمِعْتَه من النَّبيِّ ﷺ، قال: دَعانَا النَّبيُّ ﷺ فبايَعَنا، فقال فيما أَخَذ علينا أنْ بايَعَنا علىٰ السَّمعِ والطَّاعة في

---

(١) أخرجه أحمد وغيره، واللفظ له، وصححه العلامة شعيب الأرنؤوط حديث رقم: (٦٥٣٩).

مَنشَطِنا ومَكْرَهِنا...»[1].

ومَوطِنُ الشَّاهِدِ من الحديث: هو قَولُه: «بايَعَنا علىٰ السَّمعِ والطَّاعة في مَنشَطِنا ومَكْرَهنا»؛ إذ لا يكون المَكْرَه من كَسَلٍ واستِثقَالٍ والذي هو عَكْسُ المَنشَطِ مُبَرِّرًا لتَرْك ما بُويعَ عليه رسول الله ﷺ.

وإذنْ؛ فالفُتور والكَسَل مَذمُومان في كتاب الله وسُنَّة رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم-.

قال الرَّاغب في «الذَّرِيعَة»:

«مَن تعطَّل وتبطَّل انسلَخَ مِن الإنسانِيَّة، بل من الحَيَوانِيَّة، وصار من جِنسِ المَوتَىٰ، وحَقُّ الإنسان أن يتأمَّل قُوَّته ويسعىٰ بحَسَب ذلك إلىٰ ما يُفِيده السَّعادة، ويتحقَّق أنَّ اضطِرَابه (أي: نَشاطَه) سَببُ وُصولِه من الذُّلِّ إلىٰ العِزِّ، ومن الفَقرِ إلىٰ الغِنَىٰ، ومن الضَّعَة إلىٰ الرِّفْعَة، ومن الخُمول إلىٰ النَّباهَة، وعليه أن يعلم أنَّ من تعوَّد الكَسَل ومال إلىٰ الرَّاحة فَقَد الرَّاحة (فحُبُّ الهُوَيْنَىٰ يُكْسِب النَّصَب).

وقد قيل: إذا أردْتَ ألَّا تَتْعَب، فاتْعَبْ لِئَلَّا تتعَبَ.

وقد قيل (أيضًا): إيَّاك والكَسَلَ والضَّجَر، فإنَّك إن كَسِلْتَ لم تؤدِّ حقًّا، وإن ضَجِرْتَ لم تصبِرْ علىٰ الحقِّ، وإذا تأمَّلْتَ قَولَ النَّبيِّ ﷺ: «**سَافِرُوا تَغْنَمُوا**»،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ونظرْتَ إليه نظرًا عالِيًا عَلِمْت أنَّه حثَّك علىٰ التَّحرُّك (أي: النَّشاط) الَّذي يُثمِر لك جنَّة المَأوَىٰ، ومُصاحبَة الملإِ الأَعلَىٰ، بل مُجاورَة الله تعالىٰ»[1].

ويكفي أنَّ النَّبيَّ –صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم– قد استَعاذَ بالله من العَجزِ والكَسَل، عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[2].

وقد حذَّر رسولُ الله –صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم– عبدَ الله بنَ عَمرٍو –رِضوَان الله عليهما– من الفُتور في العِبادَة فقال: «**يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَهُ**»[3]

فانظرْ يا رعاكَ الله، كيف ضُرِب تارِكُ العِبادَة بعدما كان يقوم بِها مَثلًا يُحذِّر رسولُ الله ﷺ منه!

فعلىٰ المُسلِم أن يَحْذَر من الفُتورِ؛ لأنَّ صاحِبَه مذمومٌ، ولأنَّ عَواقِبَه وخِيمَةٌ، والمُسلِم يَحرِص علىٰ ما يَنفَعُه ويَفِرُّ ممَّا يَضُرُّه ويُهلِكُه، والله سبحانه هو المُستَعان وَحْدَه أن يوفِّقَ العَبْدَ لمَرضاتِه، ويُنجِيه من مَساخِطِه.

---

(١) كتاب «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» (ص٣٨٣ وما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري.

فصل في أسباب الفتور

١- القُصورُ البَشَريُّ:

وهو ما خَلَق اللهُ عليه البَشَرَ من قُصورٍ وضعفٍ، وتغيُّر الإيمان في القُلوبِ زيادةً ونقصانًا.

ومن ذلك: ما رواه المِقدادُ بنُ الأَسودِ -رِضوَان الله عليه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا**». وهو حديثٌ صحيحٌ[(١)].

فالقلبُ لا يَمكُث طويلَ مُكثٍ علىٰ حالٍ واحِدَةٍ، وإنَّما يُقبِل ويُدْبِر، ويَنشَط ويَكسَل، ويتقلَّب في الحَياةِ مُتفاعِلًا مع ما فيها من خيرٍ وشرٍّ.

قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ؛ بَيْنَا الْقَمَرُ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ**»[(٢)].

---

(١) صححه العلامة الألباني. انظر: حديث رقم (٥١٤٧) في «صحيح الجامع».

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٩٦)، وحسنه الألباني في «الصحيحة».

وقال ﷺ: **«إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي فَقَدِ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»**.

وإذنْ؛ فهذا الفُتور وهذه الظُّلمَة يَعلُوَانِ القَلبَ حِينًا بعد حِينٍ، بعد كلِّ نشاطٍ بعَمَلٍ صالِحٍ، وبعد كلِّ ضِياءٍ بإِيمانٍ ساطِعٍ رَغْمًا عن العبد، ولا حِيلَة له بدَفْعِهِما، ولكنْ عليه أن يكون فِيهِما علىٰ مُرادِ الله ومُرادِ رَسُولِه -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم-.

وقال ابنُ القيِّم:

«تخلُّلُ الفَترَاتِ للسَّالِكِين أمرٌ لابدَّ منه، فمَن كانت فَتْرَته إلىٰ مُقارَبَة وتَسديدٍ، ولم تُخْرِجْه من فَرْضٍ، ولم تُدْخِلْه في مُحرَّمٍ؛ رُجِي له أن يعود خيرًا ممَّا كان»(١).

وقد امتدح الله المَلائِكَةَ قائلًا: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

[الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وإذنْ؛ فهم أفضَلُ من البَشَر، فالبَشَر منهم مَن يَستَكبِرُ عن عِبادَة ربِّه

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٢٢).

جَلَّ وَعَلَا، ومنهم مَن يَستَحْسِرُ فيَفْتُرُ ويَمَلُّ، ومنهم مَن يتعَبُ ويستَثْقِلُ التَّسبِيحَ، أمَّا المَلائِكَة فخلقٌ آخَرُ بصِفاتٍ أُخرَىٰ، لا يَستكبِرُون سَجِيَّةً، ولا يَفتُرون خِلْقةً ولا يَتعَبُون؛ لِمَا خَلَقهم الله عليه من قوَّة وعَظيمِ خِلْقَةٍ.

وأمَّا البَشَر فمَخلُوق ضعيفٌ لا يَملِك من نَفسِه شيئًا؛ إذ يَتعَبُ ويَمَلُّ ويَفتُر ويَكسَل، بل إنَّ الله يحول بينه وبين قَلبِه أحيانًا إذا ما خالف أَمْرَه سبحانه.

٢- مُعالجَة الفُتور بطَريقَة خاطِئَةٍ:

لقد مرَّ الكلامُ علىٰ أهمِّيَّة معرِفَة الفُتور والانتِكاسِ وأهمِّيَّة معرِفَة طُرُق التَّعامُل معهما؛ لأن التَّعامُلَ الخاطِئَ يَنتُج بسَبَبِه ضرر فادح علىٰ السَّالِكِ إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا.

لأنَّ النَّفسَ كالدَّابَّة تَحمِلُك وتَحمِل مَتاعَك حتَّىٰ تُوصِلَك إلىٰ الجنَّة؛ فانظُرْ كيف يَتعامَلُ الرَّجُل في الصَّحْراء مع دَّابَته، لو هَلَكت هي هَلَك معها في الصَّحْراء، بل لو أَفْلَتَها هَلَك!

وتأمَّلْ في هذا الرَّجل ودابَّتِه مَلِيًّا، فانظرْ كيف يُطعِمُها مع قِلَّة الطَّعام لديه! وانظرْ كيف يَحرِص علىٰ إِروَائِها مع نُدْرَة الماءِ عِندَه! وانظر كيف يُرِيحُها إذا تَعِبَت، ويُسرِع عليها في السَّيرِ إذا نَشِطت!

قال عليُّ بنُ أبي طالِبٍ رِضوَان الله عليه: «إنَّ لِهَذِه القُلوبِ إِقبالًا وإدبارًا؛ فإذا أَقْبَلَت فخُذُوها بالنَّوافِل، وإنْ أَدْبَرَت فأَلْزِمُوها الفَرائِضَ».

وهذا ما سنتوقف معه مليًّا في فصل «علاج الفتور» إن شاء الله ربُّ العَالَمين.

والحاصِلُ: أنَّ التَّشدِيدَ علىٰ النَّفسِ حالَ فُتُورِها يَنقُلُها من فُتورٍ حميدٍ عارِضٍ إلىٰ فُتورٍ خَبيثٍ عارِضٍ، وربَّما إلىٰ فُتورٍ شِبْه دائِمٍ؛ إذ لو يَئِسَت النَّفسُ من الرُّجوع كما كانت نشيطةً فإنَّها يُصِيبها من اللَّامُبالاةِ والقُنوطِ ما يَجعَلُها تَزهَدُ في العِبادَة وتُقبِل علىٰ الدُّنيا.

وكذلك الإهمالُ في مُعالَجَة الفُتورِ وتَرْك النَّفسِ علىٰ ما تريد دون تقويمٍ وعلاجٍ؛ فإنَّها بذلك تعتاد الرَّاحَة وتَرْكَ العَمَل، فيَصعُب علىٰ الإنسانِ بعدُ أن يردَّها إلىٰ ما كانت عليه من نشاطٍ وعملٍ.

فكما مرَّ، النَّفسُ كالدَّابَّة متىٰ أَخَذْتَها بالشِّدَّة والحَزمِ حال ضَعْفِها وفُتورِها تفلَّتَتْ منك، كالدَّابَّة تتفلَّتُ من صَاحِبها في الصَّحراء، فتَهلِك الدَّابَّة إذ تَرَكت صَاحِبَها ومعه طَعامُها وشَرابُها، ويَهلِك صَاحِبُها إذ لا دابَّة له سواها في صَحْراءَ مُتَرامِيَة الأَطرافِ.

٣- المَعاصِي:

قال ابنُ القيِّم -رحمة الله عليه- في بيانِ عُقوباتِ الذُّنوب والمَعاصِي:

«**وَمِنْ عُقُوبَتِهَا**: أَنَّهَا تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَىٰ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، أَوْ تَعُوقُهُ، أَوْ تُوقِفُهُ وَتَقْطَعُهُ عَنِ السَّيْرِ، فَلَا تَدَعُهُ يَخْطُو إِلَىٰ اللهِ خُطْوَةً، هَذَا إِنْ لَمْ تَرُدَّهُ عَنْ

وُجْهَتِهِ إِلَىٰ وَرَائِهِ، فَالذَّنْبُ يَحْجُبُ الْوَاصِلَ، وَيَقْطَعُ السَّائِرَ، وَيُنَكِّسُ الطَّالِبَ، وَالْقَلْبُ إِنَّمَا يَسِيرُ إِلَىٰ اللهِ بِقُوَّتِهِ، فَإِذَا مَرِضَ بِالذُّنُوبِ ضَعُفَتْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تُسَيِّرُهُ، فَإِنْ زَالَتْ بِالْكُلِّيَّةِ [أي: قُوَّتُه] انْقَطَعَ عَنِ اللهِ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ» اهـ[1].

الذَّنوب والمَعاصِي تُضعِف وَقارَ القَلبِ لله جَلَّ وَعَلَا وتَعظِيمَه له، ممَّا يُوقِع العبدَ في الفُتور المُوصِل إلىٰ اقتِرَافِ مَزيدٍ من الذُّنوب والمَعاصِي.

قال ابن القيم رحمة الله عليه:

«**ومِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ:** أَنَّهَا تُضْعِفُ فِي الْقَلْبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَتُضْعِفُ وَقَارَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَلابد، شَاءَ أَمْ أَبَىٰ، وَلَوْ تَمَكَّنَ وَقَارُ اللهِ وَعَظَمَتُهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ لَمَا تَجَرَّأَ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ.

وَرُبَّمَا اغْتَرَّ الْمُغْتَرُّ وَقَالَ: إِنَّمَا يَحْمِلُنِي عَلَىٰ الْمَعَاصِي حُسْنُ الرَّجَاءِ، وَطَمَعِي فِي عَفْوِهِ، لَا ضَعْفُ عَظْمَتِهِ فِي قَلْبِي، وَهَذَا مِنْ مُغَالَطَةِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ عَظَمَةَ اللهِ تَعَالَىٰ وَجَلَالَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ تَقْتَضِي تَعْظِيمَ حُرُمَاتِهِ، وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِهِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الذُّنُوبِ، وَالْمُتَجَرِّئُونَ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَكَيْفَ يَقْدُرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، أَوْ يُعَظِّمُهُ وَيُكَبِّرُهُ، وَيَرْجُو وَقَارَهُ وَيُجِلُّهُ،

---

(١) «الجواب الكافي» صفحة (٣٨).

مَنْ يَهُونُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ؟! هَذَا مِنْ أَمْحَلِ الْمُحَالِ، وَأَبْيَنِ الْبَاطِلِ، وَكَفَىٰ بِالْعَاصِي عُقُوبَةً أَنْ يَضْمَحِلَّ مِنْ قَلْبِهِ تَعْظِيمُ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ، وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِهِ، وَيَهُونُ عَلَيْهِ حَقُّهُ» اهـ[1].

وقال:

«**وَمِنْهَا**: أَنَّ الْمَعَاصِيَ تَزْرَعُ أَمْثَالَهَا، وَتُوَلِّدُ بَعْضَهَا بَعْضًا، حَتَّىٰ يَعِزَّ عَلَىٰ الْعَبْدِ مُفَارَقَتُهَا وَالْخُرُوجُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا، وَإِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، فَالْعَبْدُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً قَالَتْ أُخْرَىٰ إِلَىٰ جَنْبِهَا: اعْمَلْنِي أَيْضًا، فَإِذَا عَمِلَهَا، قَالَتِ الثَّالِثَةُ كَذَلِكَ، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَتَضَاعَفُ الرِّبْحُ، وَتَزَايَدَتِ الْحَسَنَاتُ.

وَكَذَلِكَ كَانَتِ السَّيِّئَاتُ أَيْضًا، حَتَّىٰ تَصِيرَ الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَصِفَاتٍ لَازِمَةً، وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً، فَلَوْ عَطَّلَ الْمُحْسِنُ الطَّاعَةَ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَأَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ، حَتَّىٰ يُعَاوِدَهَا، فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ، وَتَقَرَّ عَيْنُهُ.

وَلَوْ عَطَّلَ الْمُجْرِمُ الْمَعْصِيَةَ وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الطَّاعَةِ؛ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَأَعْيَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ، حَتَّىٰ يُعَاوِدَهَا، حَتَّىٰ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُسَّاقِ لَيُوَاقِعُ

---

(١) «الجواب الكافي» صفحة (٣٦).

الْمَعْصِيَةَ مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ يَجِدُهَا، وَلَا دَاعِيَةٍ إِلَيْهَا، إِلَّا بِمَا يَجِدُ مِنَ الْأَلَمِ بِمُفَارَقَتِهَا.

كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شَيْخُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ، حَيْثُ يَقُولُ:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ ... وَأُخْرَىٰ تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وَقَالَ الْآخَرُ:

فَكَانَتْ دَوَائِي وَهْيَ دَائِي بِعَيْنِهِ ... كَمَا يَتَدَاوَىٰ شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ

» اهـ[1].

وقال رحمة الله عليه:

«وَمِنْهَا -وَهُوَ مِنْ أَخْوَفِهَا عَلَىٰ الْعَبْدِ-: **أَنَّهَا تُضْعِفُ الْقَلْبَ عَنْ إِرَادَتِهِ، فَتُقَوِّي إِرَادَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَتُضْعِفُ إِرَادَةَ التَّوْبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا**، إِلَىٰ أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ قَلْبِهِ إِرَادَةُ التَّوْبَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَوْ مَاتَ نِصْفُهُ لَمَا تَابَ إِلَىٰ اللهِ، فَيَأْتِي بِالِاسْتِغْفَارِ وَتَوْبَةِ الْكَذَّابِينَ بِاللِّسَانِ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، وَقَلْبُهُ مَعْقُودٌ بِالْمَعْصِيَةِ، مُصِرٌّ عَلَيْهَا، عَازِمٌ عَلَىٰ مُوَاقَعَتِهَا مَتَىٰ أَمْكَنَهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَاضِ وَأَقْرَبِهَا إِلَىٰ الْهَلَاكِ» اهـ[2].

وقال:

«**وَمِنْهَا** [أي: من عقوبات المعاصي وآثاره]: أَنَّهُ يَنْسَلِخُ مِنَ الْقَلْبِ اسْتِقْبَاحُهَا،

---

(١) «الجواب الكافي» صفحة (٢٠).

(٢) «الجواب الكافي» صفحة (٢١).

فَتَصِيرُ لَهُ عَادَةً، فَلَا يَسْتَقْبِحُ مِنْ نَفْسِهِ رُؤْيَةَ النَّاسِ لَهُ، وَلَا كَلَامَهُمْ فِيهِ.

وَهَذَا عِنْدَ أَرْبَابِ الْفُسُوقِ هُوَ غَايَةُ التَّهَتُّكِ وَتَمَامُ اللَّذَّةِ، حَتَّىٰ يَفْتَخِرَ أَحَدُهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيُحَدِّثَ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ عَمِلَهَا، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ كَذَا وَكَذَا.

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يُعَافَوْنَ، وَتُسَدُّ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ التَّوْبَةِ، وَتُغْلَقُ عَنْهُمْ أَبْوَابُهَا فِي الْغَالِبِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًىٰ إِلَّا الْمُجَاهِرُونَ، وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ أَنْ يَسْتُرَ اللهُ عَلَىٰ الْعَبْدِ ثُمَّ يُصْبِحُ يَفْضَحُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَهَتَكَ نَفْسَهُ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ**»[1] .. » اهـ[2].

وقد اكتفيتُ بكلام الإمام ابن القيِّم شيخ الإسلام؛ لِمَا فيه من بَرَكة وحُسنِ عِبارَة ودِقَّة بيانٍ.

٤ - ضَعفُ اليَقِين وطُولُ الأمَل.

من أسبابِ الفُتور والكسَل ضَعفُ اليقين وطُولُ الأمَل، فإذا ما ضَعُف يقينُك بأنك ستَموتُ، وأن الله مُطَّلِعٌ عليك، وهو باعِثُك يوم القيامةِ، ومُحاسِبُكَ بين يديه علىٰ الكبيرِ والصَّغير، وعلىٰ عُمُرك ومَالِك، وشَبابِك وكُهُولَتِك، فإن ذلك سيُؤثِّر علىٰ سَيْرك في الطَّريق لا مَحالةَ؛ **فإنَّه مَن نَسِي اللِّقاءَ سَار عَلىٰ مَهَلٍ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) «الجواب الكافي» صفحة (٢٢).

ولو كانَ مُتأَخِّرًا.

فعلىٰ المُسلم أن يَتذَّكر المَوتَ، وأن يُقْبِل علىٰ نفسِه مُتأمِّلًا، فما وُلِدَ إلَّا ليَموتَ، وما أحْيَاه اللهُ في هذا الاخْتِبارِ إلا ليُجازِيَه علىٰ ما فعَل فيه، فمَن عَمِل خيرًا فجزاؤه الخَيرُ، ومَن عَمِل شرًّا فجزاؤه كذلك.

عن ابنِ مَسعودٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَياء، قالوا: إنَّا نَسْتَحِي والحَمدُ للهِ، قال: ليس ذَلك، وَلكِن الاسْتِحياء مِن الله حَقَّ الحَياءِ: أنْ يَحفَظَ الرَّأسَ ومَا وَعَىٰ، وأن تَحفَظَ البَطنَ ومَا حَوَىٰ، ولْتَذْكُر المَوتَ والبِلَىٰ، ومَن أرادَ الآخِرةَ تَرك زِينةَ الدُّنيا، فمَن فَعَل ذلك فقد اسْتَحْيَا مِن الله حَقَّ الحَيَاء**»(١).

فعَلىٰ الإنسانِ أن يَذكُرَ المَوتَ والبِلَىٰ، فإنه مَيِّتٌ، وسَيبْلىٰ في قَبْره، وسَتَأكُله الدِّيدانُ، وأوَّل ما يُنْتِن من المَرءِ بَطنُه.

قال الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح»:

«وَمِنْ كَلَام عَلِيٍّ أَخَذَ بَعْضُ الْحُكَمَاء قَوْله: «الدُّنْيَا مُدْبِرَة، وَالْآخِرَة مُقْبِلَةٌ؛ فَعَجَبٌ لِمَنْ يُقْبِل عَلَىٰ الْمُدْبِرَة وَيُدْبِر عَلَىٰ الْمُقْبِلَة»، وَوَرَدَ فِي ذَمِّ الِاسْتِرْسَال مَعَ الْأَمَل حَدِيثُ أَنَس رَفَعَهُ: «**أَرْبَعَة مِنَ الشَّقَاء: جُمُود الْعَيْن، وَقَسْوَة الْقَلْب، وَطُول**

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والترمذي (٢٥٧٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع».

الْأَمَل، وَالْحِرْصُ عَلَىٰ الدُّنْيَا [1]»، أَخْرَجَهُ الْبَزَّار.

وَعَنْ عَبْد الله بْن عَمْرٍو رَفَعَهُ: «**صَلَاح أَوَّل هَذِهِ الْأُمَّة بِالزَّهَادَةِ وَالْيَقِين، وَهَلَاكُ آخِرهَا بِالْبُخْلِ وَالْأَمَل**»، أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ وَابْن أَبِي الدُّنْيَا.

وَقِيلَ: إِنَّ قِصَر الْأَمَل حَقِيقَة الزُّهْد، وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ هُوَ سَبَب؛ لِأَنَّ مَنْ قَصُرَ أَمَله زَهِدَ، **وَيَتَوَلَّد مِنْ طُول الْأَمَل الْكَسَل عَن الطَّاعَة، وَالتَّسْوِيف بِالتَّوْبَةِ، وَالرَّغْبَة فِي الدُّنْيَا، وَالنِّسْيَان لِلْآخِرَةِ، وَالْقَسْوَة فِي الْقَلْب**؛ لِأَنَّ رِقَّته وَصَفَاءَهُ إِنَّمَا يَقَع بِتَذْكِيرِ الْمَوْت وَالْقَبْر وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب وَأَهْوَال الْقِيَامَة، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الحديد: ١٦]، وَقِيلَ: مَنْ قَصُرَ أَمَلُه قَلَّ هَمُّه وَتَنَوَّرَ قَلْبُه؛ لِأَنَّهُ إِذَا اسْتَحْضَرَ الْمَوْتَ اجْتَهَدَ فِي الطَّاعَة، وَقَلَّ هَمُّه، وَرَضِيَ بِالْقَلِيلِ» اهـ [2].

فعندَما يُقْبِل الإنسانُ علىٰ الآخرةِ بقَلبِه، ويُوقِنُ باقْتراب أجَلِه، فإنه يَزهَدُ في الدُّنيا، ويَنشَط في عَمَل الآخِرَة.

يقولُ مُحمَّد بنُ كَعب القُرُظِيُّ: «دخلتُ علىٰ عُمرَ بنِ عبدِ العزيز بَعد استخلافه، وقد نَحلَ جِسمُه، وعَفا شَعرُه، وتَغيَّر لَونُه، وكان عَهْدُنا به في المَدينة وهو أميرٌ عليها، حُسْنَ الجِسْم، مُمتلئَ البضعَة، فجعلتُ أنظُر إليه، لا أَصْرف

(١) أخرجه البزار في مسنده وضعفه الألباني.

(٢) انظر: «فتح الباري» (١١/ ٢٨٥).

بَصَري عنه، فقال لي: يا ابن كَعْب، ما بَالُك تَنظُر إليَّ نَظرًا ما كنتُ تَنظرُه إليَّ مِن قَبْلُ؟ قلتُ: لِعَجَبِي، يا أميرَ المؤمنين!! قال: وَمِمَّ عَجَبُكَ؟ قلتُ: ممَّا نَحِل من جِسمِك، وعفا مِن شَعَرِك، وتَغيُّر لَونِك.. أين ذاك اللَّونُ النَّضير، والشَّعَر الحَسَن، والبَدَن الرَّيان؟ فقال لي: إنَّك إذَنْ لأشَدُّ عَجبًا مِن أمْري، وإنكارًا لِي، **لو رَأيتَنِي بعد ثلاثٍ في قَبري، وقد وَقَعَت عيناي علىٰ وَجْنَتي، ويَسيلُ منْخَري وفَمِي دُودًا وصَديدًا، لكُنتَ لي أشَدَّ نكرَةً منك اليَوم!!»**[1].

قال تَعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧].

قال الحافِظُ ابنُ كَثير في تَفسيره لهذه الآيات:

«أي: لو أَخَّرناهم وأَنْظَرْناهُم، وأَمْلَيْنا لهم بُرْهَةً مِن الزَّمان وَحِينًا من الدَّهْر وإن طال، ثم جاءهم أمرُ الله، أيُّ شَيء يُجدي عنهم ما كانوا فيه مِن النِّعَم؟! ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات:٤٦]، وقال تَعالىٰ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة:٩٦]، وقَال تَعالىٰ: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الليل:١١]؛ ولهذا قال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾.

(١) ابن عبد الحكم - «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص٥٥).

وفي الحَديث الصَّحيح: «**يُؤتَىٰ بالكافِر فيُغمَسُ في النَّارِ غَمسَةً، ثم يُقالُ له: هل رَأيتَ خَيرًا قَطُّ؟ هل رأيتَ نَعيمًا قَطُّ؟ فيقولُ: لَا** [واللهِ يا رَبِّ]. **ويُؤتىٰ بأشَدِّ النَّاس بُؤْسًا كان في الدُّنيا، فيُصبَغُ في الجَنَّة صَبغَةً، ثم يُقالُ له: هل رأيتَ بُؤسًا قطُّ؟ فيقول: لا وَالله يا رَبِّ**» أي: ما كأنَّ شَيئًا كان؛ ولهذا كانَ عُمرُ بنُ الخطَّاب، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يتمَثَّل بهذا البَيت:

كأنَّـك لَـمْ تُـوتِر مـن الـدَّهْر لَيْلَـةً إذا أنْتَ أدْرَكْتَ الذي كنتَ تَطْلُبُ» أهـ

قال تَعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٨].

فأيُّ فُتورٍ وكَسَل بهذا الذي سَمعتَ وقَرأتَ؟!

إنَّ الكسَلَ لَيَأْتي لمَن طال أَمَلُه، ونَسِي أَجَلُه، أمَّا مَن تَذكَّر المَوتَ، وعَلِم أنه يأتي بَغتَةً فإنَّه لا يَكسُل، فإن سَيطَر عليه كَسَلُه، فليُذَكِّر نَفسَه باقتراب أَجَلِه، وكما قال ابنُ مَسعودٍ رضوانُ الله عليه: «أَلَا لَا يَطُولُ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ، أَلا كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، **أَلا إِنَّ الْبَعِيدَ مَا لَيْسَ بِآتٍ**»(١).

فطُول الأمَل يُولِّد قَسوةَ القَلب، وقَسوَةُ القَلب يَنتُج عنها فُتورُ العَمَل.

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» برقم (١٨١١).

٥- مُجالَسَةُ البَطَّالِين الكُسَالى.

عَنْ أَبِىٰ هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١).

فإذا كانَت المُجالسَة والمُصاحَبَةُ تُؤثِّرُ في الدِّين والعَقيدة فهي مُؤَثِّرَة في الهِمَّة والنَّشَاط مِن باب أَوْلىٰ، فمَن صاحَب وجالَسَ العُلماءَ الأكابِرَ أَقبَل بكُلِّيَّتِه علىٰ العِلْم وعَرَف فَضلَه، ومَن جَالَس العُبَّادَ اجْتَهَد في العِبادَةِ لِيَسْبِقَهُم إلىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وكذلك مَن جالَس أَهْلَ البَطالَةِ والكَسَل فإنه لا شَكَّ سَينالُه ما نَالَهم، ولو سعىٰ بشَتَّىٰ الطُّرُق أن يُحَصِّنَ نَفسَه مما أصابَهُم من مَرضِ الكَسَل والفُتُور، فإنه سَيُصِيبُه مَرَضٌ آخَرُ، وهو العُجْب والغُرُور، فهو أَنشَطُ جُلسائه، وأَكْثَرُهم مسارَعةً إلىٰ الخيرات، وإذَنْ هو بين خَطَرَين فتَّاكَين: بين الفُتور والكسَل من جِهَةٍ، والعُجْبِ ورُؤيَةِ النَّفْس مِن جِهةٍ أُخرىٰ.

وغالِبُ مَن يُجالس البَطَّالين يُصابُ أَوَّلًا بالعُجْب، ثُم يُصابُ بالفُتُور والكسَل، فيُصْبِح كَسولًا مُعجَبًا بنَفسِه!

مُجالَسَة البَطَّالِين تُعَلِّم المَرءَ الإقبالَ علىٰ الرُّخَص وَوَضْعِها في غَيْر مَوضِعها، والانْشِغال بالمَفضُول عن الفاضِل، وتَرك كَثيرٍ مِن الخيرِ والانْشِغال

(١) أخرجه الترمذي ،وحسنه الألباني، انظر حديث رقم: (٣٥٤٥) في «صحيح الجامع».

بسَفاسِف الأُمور.

وعلىٰ النَّقيضِ، فإنَّ مَن يُجالِسُ أصحابَ الهِمَمِ العالِيَة يَحتَقِر نَفسَه وَيَعْرِفُ حَقِيقَتَها، ثم هو يَسعىٰ لتَغْيِيرها والإقبالِ بها علىٰ الله ربِّ العالَمِين.

٦- الحِرصُ على الدُّنيا والانْشغَال بها.

الحِرصُ علىٰ الدُّنيا والانشغالُ بها مِن أكثر الأشياء التي تَصُدُّ العَبدَ وتَمنَعُه مِن الإقبالِ علىٰ الطَّاعَة.

قال رسولُ الله ﷺ: «**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فِيها**»(١).

فمَن فَضَّل الحياةَ الدُّنيا علىٰ الحياةِ العُلْيا الأبَدِيَّةِ فقد خَسِر، ومَن كان هذا مَنْهَجَه في الحياة -أن يُفضِّل الدَّنِيَّ علىٰ العَلِيِّ، والمُؤَقَّتَ مِن النَّعيم في الدُّنيا علىٰ الدَّائِم منه في الآخِرة- فإنَّه لا شَكَّ سيَفْتُر وسَتَثْقُل عليه الطَّاعات، فها هُو مُخيَّرٌ بين النَّومِ ليَستَيقِظَ نَشيطًا إلىٰ عمَلِه وبين رَكعَتَي الفَجْر -أي: سُنَّة الفَجْر- فإنَّه سيُفضِّل النومَ علىٰ ما وَصَفه الرَّسولُ ﷺ: «**خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**».

فعلىٰ الإنسانِ أنْ يَجمَع شَمْل نفسِه ويُوجِّهه إلىٰ الآخِرة، فلم نُخْلَق لنُخَلَّد في الدُّنيا، وإنَّما هي دارُ مَمَرٍّ ودَارُ امْتِحَانٍ.

---

(١) رواه مسلم.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضىٰ الله عنهما قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ(١).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُبغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ صَخَّابٍ في الأسْواقِ، جِيفَةٍ باللَّيْل، حِمَار بالنَّهَار، عالِم بأَمْر الدُّنْيا، جَاهِل بأَمْر الآخِرَة**»(٢).

قال العلَّامةُ الألبَانِيُّ مُعلِّقًا علىٰ الحَديث: «(الجعْظَري) الفَظُّ الغَليظ المُتكبِّر. (الجَوَّاظ) الجَمُوع المَنُوع. (السَّخَّاب) كالصَّخاب: كَثير الضَّجيج والخِصَام.

وفي رِوايةٍ ذَكرَها ابنُ الأثير: «خُشُب باللَّيل، سُخُب بالنَّهار. أي: إذا جنَّ عَليهم اللَّيل سَقَطوا نِيامًا كأنَّهم خُشُب، فإذا أصبحوا تَساخَبُوا علىٰ الدُّنيا شُحًّا وحِرْصًا».

(جِيفَة) أي: كالجِيفَة، لأنَّه يَعمَلُ كالحِمَار طُوَالَ النَّهار لدُنْياه، ويَنامُ طُولَ لَيلِه كالجِيفَة التي لا تَتَحَرَّك.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) ابن حبان في «صحيحه»، وضعفه الألباني بعدما كان يصححه، انظر: «ضعيف الترغيب والترهيب» حديث رقم (٣٧٨).

قلتُ [القائل الإمام الألباني]: وما أشَدَّ انْطِباقَ هذا الحَديثِ علىٰ هَؤلاء الكُفَّار الذين لا يَهتَمُّون لآخِرَتِهم، مع عِلمِهِم بأمورِ دُنياهم، كما قال تَعالىٰ فيهم: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الروم: ٧]، ولبَعض المُسلمين نصيبٌ كبيرٌ من هذا الوَصْف، الذين يَقضُون نهارَهم في التَّجوُّل في الأسواقِ والصِّياحِ فيها، ويُضيِّعون عليهم الفَرائضَ والصَّلوات: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: ٤، ٥]» اهـ.

فمَن كان هذا شَأنَه فقُل لي برَبِّك: كيف يَنشَط للطَّاعة وقد بَذَل جُهدَه كلَّه لتحصيلِ الدُّنيا ومَتاعِها الزَّائل؟!

فعلىٰ الإنسانِ أن يَحرِصَ علىٰ ما يَنفَعُه بحَقٍّ، فإن كانَت الدُّنيا سَتَعُود عليه بمَتاعٍ مُؤقَّت، فإنَّ الآخرةَ مَتاعُها لا يَنفَد.

* * *

فصلٌ في علاجِ الفُتور وكيفِيَّة التَّعامُل معه

لقد عَلَّمَنا رَسُول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم- أنَّ الفُتور لابُدَّ مُصِيبُ السَّالِكَ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، فعلينا أن نَستَعِدَّ له.

فكما يستَعِدُّ الإنسانُ لبُرودَة فصل الشِّتاءِ بإِحضار الثِّياب الثَّقيلَة وتَجهِيز الأَدَوات التي بها تَرتَفِع حَرارَةُ مَنزِله من مُدَفِّئَات وما أشبَهَ، فعليه أن يستَعِدَّ لبُرودَة الفُتور بما يَحفَظ عليه حَرارَةَ إِيمانِه ونَشاطَ قَلبِه، لأَنَّه لو استَقبَلَه عارِيَ الصَّدرِ لا مبالِيَ به فإِنَّه يُصيبه ما يُصيبه من البَرد فيُهلِكَه، وكذا الفُتور لو استَقبَلَه العَبدُ وهو لم يتسلَّحْ بعدُ بأَسلِحَةٍ مُضادَّةٍ فإِنَّه يُصيبه ما يُصيبه من أذًىٰ في قلبه مما يُعرِّضُه للمَهالِك، نسأل الله السَّلامَة والعافِيَة.

قال ابن القيم:

«وقد أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ لكلِّ عامِلٍ شِرَّةً، ولكلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فالطَّالِبُ الجادُّ لابدَّ أن تَعرِض له فَتْرَة فيَشتاقُ في تلك الفَتْرَة إلىٰ حاله وَقْتَ الطَّلَب والاجتِهادِ... فتخلُّل الفَتَرات للسَّالِكين أمرٌ لازِمٌ لابدَّ منه؛ فمن كانتْ فَتْرَتُه

إلىٰ مُقارَبة وتَسديدٍ ولم تُبعِدْه عن القيام بفَرْضٍ أو الوُقوعِ في مُحَرَّم رُجِي له أن يعود خيرًا ممَّا كان.

قال عُمَر بنُ الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **وأرضاه:** «إنَّ لِهَذِه القُلوبِ إِقبالًا وإِدبارًا؛ فإذا أَقبَلَت فخُذُوها بالنَّوافِلِ، وإن أَدبَرَت فأَلزِمُوها الفَرائِضَ».

وفي هَذِه الفَتَرات والغُيومِ والحُجُب التي تَعرِض للسَّالِكين من الحِكَم ما لا يعلم تَفصِيلَه إلَّا الله، وبِها يتبيَّن الصَّادقُ مِن الكاذب.

فالكاذب ينقَلِبُ علىٰ عَقِبَيْه ويعود إلىٰ رُسومِ طَبيعَتِه وهواه، والصَّادق ينتظرُ الفَرَجَ ولا ييأَسُ من رَوْحِ الله، ويُلقِي نَفسَه بالباب طريحًا ذليلًا مِسكينًا مُستكِينًا كالإِناء الفارِغِ الذي لا شيءَ فيه أَلبَتَّةَ، ينتظِرُ أن يَضَع فيه مالِكُ الإِناءِ وصانِعُه ما يَصلُح له لا بسببٍ من العبد، وإن كان هذا الافتِقارُ من أعظم الأَسبابِ؛ لكنْ ليس هو منك، بل هو الذي مَنَّ عليك به وجرَّدَك منك وأَخلَاكَ عنك، وهو الذي يحُول بين المَرءِ وقَلبِه.

فإذا رَأيتَه قد أَقامَك في هذا المقامِ فاعْلَمْ أنَّه يُرِيد أن يَرحَمَك ويملأَ إِناءَك؛ فإنْ وَضَعْتَ القَلبَ في غَيرِ هذا المَوضِع فاعْلَمْ أنَّه قلبٌ مُضَيَّعٌ؛ فسَلْ ربَّه ومَن هو بين أَصابِعه أن يرُدَّه عليك ويجمَعَ شَمْلَك به»[1].

---

(١) «مدارج السالكين» - الجزء الثاني (٣١٨).

وإذنْ؛ فالفُتور اختِبارٌ يظهر فيه الكاذِبُ من الصَّادِق، والمُخلِصُ من المُرائِي، فإمَّا يُحارِبُه العبدُ حتَّىٰ يَنصُرَه الله عليه، وإمَّا يستَسلِمُ لطِبَاعِه وهواهُ ويَرْكَن للرَّاحَة وتَرْكِ العَملِ، وإذنْ فهو مِنْحَة أو مِحْنَة، والله المُوَفِّق وهو المستعان.

وممَّا يُهلِكُ العَبدَ أيضًا: أن يُقاوِمَ هذا الفُتورَ بما لا ينبغي أن يقاوَمَ به.

فأوَّل شيءٍ عليك فِعْلُه: هو الأَمَلُ وعدَمُ اليَأسِ أبدًا، وقريبًا ستعود إلىٰ أفضلَ مِمَّا كُنتَ عليه من إقبالٍ ونشاطٍ، شريطَةَ أن تبدأ العمل في الاتِّجاه الصَّحيح لكي تَستعِيدَ ما كُنتَ عليه قبلُ، بل لِتَعُودَ أَفضلَ ممَّا كُنتَ عليه.

ومما يُعالَجُ به الفُتور:

١- عدمُ الإفراطِ في القَلَق.

عدمُ الإفراط في القَلَق والتَّوَتُّر بسَبَب الشُّعور بالفُتور، وعلىٰ المَرءِ أن يقودَ نَفسَه في هذه الفَتْرة ببُطءٍ -بحَسب حَالَتِه وطبيعة نَفسِه-، وهو مطمَئِنُّ القَلبِ يتَّقي الزَّلَل، حتَّىٰ لا تتفلَّتَ منه تفلُّتَ الماء مِن بين الأَصابِعِ، فيُصبِحَ وقد خَسِرَ نَفسَه وخَرج من أَزْمة فُتورِه إلىٰ أَزْمة ضَياعِ نَفسِه وشُرودِها، والذي سيحتاج إلىٰ جُهودٍ وأوقاتٍ من أجلِ ردِّها إليه، ربَّما يوفَّق فيها إلىٰ ردِّها وربَّما لا يوفَّق، وإذنْ؛ فالهُدوءَ الهُدوءَ! والحَذَرَ الحَذَرَ!

وقد أَخبرَنا رَسُول الله ﷺ أنه: «**مَا مِنَ القُلُوبِ قَلْبٌ إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ**

الْقَمَرِ؛ بَيْنَا الْقَمَرُ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ».

وإذنْ؛ فالأَمرُ عامٌّ وشامِلٌ علىٰ المُؤمِنين جميعًا، ولستَ -أيُّها الفاتِرُ- بِدْعًا من النَّاس تَفتُر وهم لا يَفتُرون وتَكسَل وهم لا يَكسَلون، بل هي آفة عامَّة، وهي سحابةٌ تمرُّ ولا يلْبَثُ المَرءُ حتَّىٰ يعود إلىٰ نشاطِهِ وإقبالِه علىٰ ربِّه جَلَّوَعَلَا؛ فكُنْ هادِئًا ولا تتوتَّرْ، حتَّىٰ لا تُحْدِثَ بتَوتُّرِك هذا في نَفسِك ما لا ينبغي أن يكون.

٢- عدَمُ جَبْر النَّفسِ علىٰ الطَّاعاتِ المَندوبَة حالَ الفُتورِ.

فإيَّاك أن تُجبِر نفسَك في حالِ فُتورِها وضَعفِها علىٰ الطَّاعات الثَّقيلَة علىٰ النَّفس، كقِيامِ اللَّيل وصيامِ النَّهار لاسيَّما في الصَّيف الحارِّ، ولكنْ في هذه الحالة عليك أن تكتفِيَ بالفَرائِضِ وتَحرِص علىٰ أَدائِها بنَشاطٍ، فالنَّفسُ -كما مرَّ- كالدَّابَّة، حالَ فُتورِها تكون ثائِرَة علىٰ صاحِبِها رافِضَةً لأَوامِرِه لها، فعليه أن يُعامِلَها برفقٍ حتَّىٰ تستعِيدَ نشاطَها.

وقد قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِحَالِلَّهُعَنْهُ -وهذا القَولُ منسوبٌ لعُمَر ولغَيرِهما-: «إنَّ لهذه القُلوبِ إقبالًا وإدبارًا؛ فإذا أَقْبَلَتْ فخُذوها بالنَّوافِل، وإنْ أَدْبَرَت فأَلْزِمُوها الفَرائِض».

٣- الحَذَر من التَّوَسُّع في المُباحِ حالَ الفُتور.

احذَرْ من التَّوسُّع في المُباح حالَ فُتورِك، فالنَّفس تَستَدرِج صاحِبَها وفي

حال الفُتورِ تكون العَزِيمَة ضَعِيفَةً؛ فإذا ما تَوَسَّعْتَ في المُباح في هذه الحالة فإنَّك تُوشِك أن تقعَ في الحرامِ، وإذا ما وقعْتَ في الحرام فإنَّ الأَمرَ سيزداد سُوءًا علىٰ سوءٍ، وربَّما تحوَّلْتَ من حالة فُتورٍ إلىٰ حالة أَسوأَ منها، وحِينَها يَصعُب العلاج.

وكذلك إيَّاك أن تتوسَّع في الرُّخَص حالَ فُتورِك، كرُخصَة جمع الصَّلاةِ، أو تَرْك الجَماعَة من أَجلِ رَائِحَة البَصَل أو الثُّوم، فتَرىٰ الرَّجُل يتعمَّدُ تُناوُل البَصلِ قُبَيلَ الصَّلاة ليَتْرُك الجَماعَة، وهو يظنُّ نَفسَه يأخُذُ بالرُّخصة، ولكِنَّه في الحقيقة يتلاعَبُ بنَفسِه ويَضُرُّ بِها ويُساعِدُها علىٰ تدمير ذَاتِها.

قال الشَّاطِبيُّ:

«فإذا صار المُكَلَّفُ في كل مسألةٍ عَنَّتْ له يَتَّبِع رُخَصَ المَذاهب وكلَّ قولٍ وافَقَ فيها هواه، فقد خَلَعَ رِبْقَةَ التَّقوَىٰ وتَمادَىٰ في مُتابَعَة الهوىٰ، ونَقَضَ ما أَبْرَمَه الشَّارِعُ وأَخَّر ما قدَّمَه»(١).

هذا في الحالة العادِيَّة للمُكلَّف، فكيف إذا وقع فيما حذَّر منه الإمامُ الشَّاطِبيُّ حالَ فُتورِه وضَعفِ نَفسِه؟!

بل علىٰ الإنسان حالَ فُتورِه أن يَتْرُك فُضولَ الكلامِ وفُضولَ الطَّعامِ وفُضولَ

(١) «الموافقات» للشاطبي (٢/ ٣٨٦ - ٣٨٧).

النَّومِ، فلا يُكْثِرْ من الكلامِ إلا لحاجَةٍ، ولا يَتوسَّعْ في الطَّعام، وإنَّما يَكفِيه ما يَقُوته، وكذلك في النَّوم فكَثْرَة النَّومِ تُقَسِّي القَلبِ، وكذلك تَرْكُ فُضول المُخالَطة للنَّاسِ، فضلًا عن مُخالَطَة أهل المعاصي والذُّنوب.

قال الفضيل: «ثَلاثُ خِصالٍ تُقَسِّي القَلبَ: كَثْرَة الأَكلِ، وكَثْرَة النَّومِ، وكَثْرَة الكلامِ».

قال ابنُ القيِّم رحمة الله عليه:

«فتَهذِيبُ قَصدِه وتَصفِيَتُه بحَمِيَّتِه من أَسبابِ هذا المَرَض الذي هو فُتورُه، وإنَّما يتحفَّظُ منه بالحَمِيَّة من أَسبابِه، وهو أن يَلْهُوَ عن الفُضولِ من كلِّ شيءٍ، ويَحرِصَ علىٰ تَرْك ما لا يَعنِيه، ولا يَتكلَّم إلَّا فيما يَرْجُو فيه زِيادَة إيمانِه وحَالِه مع الله، ولا يَصْحَبْ إلَّا مَن يُعِينُه علىٰ ذلك، فإنْ بُلِي بمَن لا يُعِينُه فلْيَدْرَأْهُ عنه ما استطاع ويَدْفَعْه دَفْعَ الصَّائِل»[1].

٤ - اليَقَظة والصِّدقُ في مُراقَبة النَّفسِ.

علىٰ المُسلِم أن يكون يَقِظًا في وَقتِ فُتورِه، مُتابِعًا لنَفسِه عن قُرْبٍ مُراقِبًا لها، فإنْ شَعَر منها اقتِرابًا من مَعصِيَة فعليه أن يُوقِفَها، وعليه ألَّا يُجادِل عن نَفسِه

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٠٢، ١٠٣).

بالباطِلِ، وألَّا يَصِفَها بما لا تستحِقُّ من قوَّةٍ في البُعدِ عن المَعصِيَة وما أشبَهَ من هذه الصِّفاتِ التي يُخادِع المَرءُ بِها نَفسَه وتُخادِعُه نَفسُه بِها.

قال شَيخُ الإِسلامِ ابنُ تَيمِيَّة:

«قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾** ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥] فَإِنَّهُ يَعْتَذِرُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَعْذَارٍ وَيُجَادِلُ عَنْهَا وَهُوَ يُبْصِرُهَا بِخِلَافِ ذَلِكَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾** ﴾ [الإسراء: ١٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾** ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**»؛ فَهُوَ يُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهِ بِالْبَاطِلِ، وَفِيهِ لَدَدٌ؛ أَيْ: مَيْلٌ وَاعْوِجَاجٌ عَنِ الْحَقِّ.

وَهَذَا عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ مُجَادَلَتُهُ وَذَبُّهُ عَنْ نَفْسِهِ مَعَ النَّاسِ.

والثَّانِي: فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، بِحَيْثُ يُقِيمُ أَعْذَارَ نَفْسِهِ وَيَظُنُّهَا مُحِقَّةً وَقَصْدُهَا حَسَنًا، وَهِيَ خَائِنَةٌ ظَالِمَةٌ، لَهَا أَهْوَاءٌ خَفِيَّةٌ، قَدْ كَتَمَتْهَا حَتَّىٰ لَا يعْرفَ بِهَا الرَّجُلُ حَتَّىٰ يرَىٰ وَينْظرَ.

قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ».

قَالَ أَبُو دَاوُد: «هِيَ حَبُّ الرِّيَاسَةِ».

وَهَذَا مِنْ شَأْنِ النَّفْسِ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرِيدُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَيُجَادِلُ اللهَ بِالْبَاطِلِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٨، ١٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤].

وَقَدْ جَاءَت الْأَحَادِيثُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجْحَدُ أَعْمَالَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يَشْهَدَ عَلَيْهِ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَجَوَارِحُهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فُصِّلَت: ٢٢].

وَمِنْ عَادَةِ الْمُنَافِقِينَ الْمُجَادَلَةُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَذِبِ وَالْأَيْمَانِ الْفَاجِرَةِ؛ وَصَفَهُم اللهُ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَفِي قِصَّةِ تَبُوكَ لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَاءَ الْمُنَافِقُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَقْبَلُ عَلَانِيَتَهُمْ وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَىٰ اللهِ؛ فَلَمَّا جَاءَ كَعْبٌ قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ لَقَدَرْتُ أَنْ أَخْرُجَ مِنْ سَخَطِهِ؛ إِنِّي أُوتِيتُ جَدَلًا؛ وَلَكِنْ أَخَافُ إِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَىٰ بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَك عَلَيَّ؛ وَلَئِنْ حَدَّثْتُك حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ؛ لَا وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللهِ مَا كُنْتُ أَقْوَىٰ قَطُّ وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْك، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ**»..»[(١)].

فعلىٰ الإنسان أن يُخاصِمَ نَفسَه، أي: يَجعلَها خَصمًا له وعدوًّا، فعليه أن يراقبها كما يراقب أعداءه المتربصين به، وألَّا يُمرِّرَ لها وألا يَلتمِسَ لها الأعذارَ، بل يتابعها متابعةً شديدة، لأنها لو تفلَّتَت منه أو غَدَرت به فإنه هالِكٌ لا محالة.

٥- البُعدُ عن فِتَنِ الشَّهواتِ.

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾

[الحج: ١١].

---

(١) «مجموع الفتاوي» (١٤/ ٤٤٥، ٤٤٦).

إنَّ الفِتَن تُهلِك مَن استَشْرَف لها من الصَّالِحين، فكيف بمَن يعانِي من فُتورٍ وضَعفٍ في النَّفس؟!

وقد حُكيَ عن كثيرٍ من المُتَنسِّكين والعابِدين أنَّهم قد افتُتِنُوا بأنواع من الفِتَن، فكيف بمَن دُونَهم في زمانٍ أسوأَ من زمانِهم! وقد انتشَرَت الفواحِشُ والمُنكراتُ، وانتشَرَ من المَعاصِي والذُّنوب ما هَلَكت به المَمالِك والأُمَم السَّابِقَة، من شِرْكٍ وشُذوذٍ وزِنًا، ومَوجَةٍ عاتِيَة جاهِلِيَّة جاهِلَة من مَوْجَات الإلحادِ والتَّحلُّل من الأَخلاقِ والدِّين تَعصِف بالبشرِيَّة اليومَ -إلَّا مَن رَحِم ربِّي- بسَبَب انتِشارِ الجهل وتظاهُرِ المَلاحِدة الجُدُد باتِّباع العلم التَّجرِيبيِّ -زعموا- والعلم التَّجريبيُّ الصَّحيح بريءٌ ممَّا هم عليه.

والنَّفس حالَ الفُتور تكون في حالةِ ضعفٍ شديدةٍ، وإقبالٍ علىٰ المعاصي وإِدبارٍ عن الطَّاعة، فالحَذَرَ الحَذَرَ حالَ الفُتورِ أن تتواجَدَ في الأماكن التي ينتشر فيها الاختِلاطُ بالنِّساء، والتي ينتَشِر فيها من الفِتَن ما ينتَشِر، فيَصعُبَ عليكَ كَبْحُ جِماحِ نَفسِك ورَدْعِها عن الوُقوعِ فيما يُغضِب الله جَلَّوَعَلَا.

قال النبي ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ لَهُ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّىٰ يَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ: أَبْيَضُ مِثْلُ الصَّفَا، فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ،**

وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجْخِيًّا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[1].

قال ابنُ الجَوزِيِّ في «كَشفِ المُشكِلِ من حَديثِ الصَّحِيحَيْن»:

«قوله: «**كَالْحَصِيرِ**» يعني: أنَّ الفِتَن تُحيط بالقُلوب فتَصيرُ القُلوب كالمَحصُور المَحبُوس.

وقال اللَّيثُ: حَصِيرُ الجَنبِ: عِرْقٌ يمتَدُّ مُعتَرِضًا علىٰ الجَنبِ إلىٰ ناحِيَة البَطنِ؛ فشبَّه إِحاطَتَها بالقَلبِ بإِحاطَة هذا العِرْق بالبَطنِ.

وقوله: «**عُودًا عُودًا**»؛ أي: مرَّةً بعد مرَّةٍ.

ومعنىٰ «**أُشْرِبَهَا**»: قَبِلَها وسَكَن إليها.

وقوله: «**نُكِتَ فِيهِ**»؛ أي: ظهر فيه أثَرٌ.

وقوله: «**حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ**» يعني: القُلوبَ، والصَّفا: الحَجَر الأَملَس.

وقوله: «**مُرْبَادًّا**» المُربَادُّ والمُرْبَدُّ: الذي في لَونِه رُبْدَة، وهي لونٌ بين السَّوادِ والغُبْرَة كلَونِ النَّعَامَة؛ ولهذا قيل للنَّعامِ: رُبْدٌ.

---

(١) رواه مسلم.

وقوله: «**كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا**» المجخِّي: المائِل، ويقال منه: جَخَىٰ اللَّيل؛ إذا مال ليَذهَب، والمعنىٰ: مائِلًا عن الِاستِقَامَة مَنكُوسًا»[1].

وقال ابنُ القيِّم -رَحمَة الله عليه- في «إِغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان»:

«وقسَّم القُلوبَ عند عَرْضِها عليها إلىٰ قِسمَين:

- قلبٌ إذا عُرِضَت عليه فتنةٌ أُشْرِبَها كما يَشرَب السَّفِنجُ الماءَ، فتُنكَتُ فيه نُكتَةٌ سَودَاءُ، فلا يزال يَشرب كلَّ فتنة تُعرَض عليه حتىٰ يسودَّ ويَنتَكِس، وهو معنىٰ قوله: «**كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا**»؛ أي: مَكبوبًا مَنكُوسًا؛ فإذا اسودَّ وانتكَس عَرَض له من هاتين الآفَتَينِ مَرَضان خَطِرَان مُتَرامِيَان به إلىٰ الهلاكِ:

أحدهما: اشتِبَاهُ المعروف عليه بالمُنكَر؛ فلا يعرف معروفًا ولا يُنكِر مُنكَرًا، وربَّما استَحْكَم عليه هذا المَرَض حتَّىٰ يَعتَقِد المَعروف مُنكرًا والمُنكرَ مَعروفًا، والسُّنَّةَ بِدعَةً والبِدعَة سُنَّةً، والحقَّ باطِلًا والباطِلَ حقًّا.

الثَّانِي: تَحكِيمُه هواه علىٰ ما جاء به الرَّسُول -صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم- وانقِيادُه للهوىٰ واتِّباعُه له.

- وقلبٌ أبيَضُ قد أَشرَقَ فيه نورُ الإيمان وأزهَرَ فيه مِصباحُه؛ فإذا عُرِضَت

---

(١) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» صفحة (٣٩٥).

عليه الفِتنَةُ أَنكرَها وردَّها، فازداد نُورُه وإِشراقُه وقوَّتُه.

والفِتَن التي تُعرَض علىٰ القُلوب هي أسباب مَرَضِها؛ وهي فِتَن الشَّهوات وفِتَن الشُّبُهات، فِتَن الغيِّ والضَّلال، فِتَن المعاصي والبِدَع، فِتَن الظُّلم والجَهل؛ فالأُولىٰ تُوجِب فسادَ القَصدِ والإرادَة، والثَّانية تُوجِب فسادَ العلم والاِعتِقَاد.

وقد قسَّم الصَّحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- القُلوبَ إلىٰ أَربَعَة، كما صحَّ عن حُذَيفةَ بن اليَمَانِ: «القُلوبُ أربَعَة:

- قلبٌ أجرَدُ فيه سِراجٌ يُزهِر؛ فذلك قَلبُ المُؤمِن.

- وقلبٌ أغلَفُ؛ فذلك قلب الكافِر.

- وقلبٌ منكوسٌ؛ فذلك قلب المُنافِق؛ عَرَف ثم أنكر وأَبصَر ثم عَمِيَ.

- وقلب تمُدُّه مادَّتان: مادَّةُ إيمان ومادَّة نفاق، وهو لِمَا غَلَب عليه منهما»[(١)].

ولاحظ جاء ذِكْر الشَّهوات في القرآن الكريم، وما تقع الشَّهوة عليه في قوله تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ

(١) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» صفحة (١٢ وما بعدها).

﴿جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٥].

وجاء ترتيبُ الشَّهوات في الآية، فبدأ بالنِّساء؛ لأَنَّهُنَّ أشدُّ فتنةً من التي تَليها؛ كما ثبت في الصحيح: أنَّه ﷺ قال: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَىٰ الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»(١).

وجهلُ الإنسانِ أو تجاهُلُه بعَواقِب ما يَرتَكِبُه من معاصٍ وذُنوب، ولا مُبالَاتُه في تحديدِ وُجهَتِه في الدُّنيا ومآلِه في الآخِرَة، إمَّا لجنَّة، أو إلىٰ نارٍ، قال الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**»(٢).

فلْيَحْذَرِ الإنسانُ كلَّ شهوةٍ محرَّمةٍ؛ إذ هي ما يَجذِب البَشَر إلىٰ النَّار، ويُبعِدُهم عن الجنَّة، فالنَّار ظاهِرُها الشَّهوات، وباطِنُها وحقيقَتُها عذابٌ أليمٌ مُهينٌ، والجنَّة ظاهِرُها المكارِهُ والجِدُّ في العمل وتَرْكُ الرَّاحة في الدنيا، وباطِنُها وحقيقَتُها متاعٌ ونعيمٌ مقيمٌ، فليَنْتَبِهِ المَرءُ لهذا جيدًا، ولْيَعْلَمْ أنَّه مخلوقٌ لغايَةٍ، فلا ينبغي عليه أن يَنشَغِل عن غَايَتِه في طَرِيقِه حتَّىٰ يصل إليها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب (النكاح - ١٨)، ومسلم رقم (٢٧٤١).

(٢) وأخرجه مسلم (٢٨٢٣)، وابن حبان (٧١٩).

٦- الدعاء بتجديد الإيمان في القلوب.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبَ؛ فَاسْأَلُوا اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[(١)].

فالدُّعاء والاستِعانَة والاستِغاثَة بالله جَلَّ وَعَلَا وحدَه من أهمِّ أسبابِ العلاج من حالات الفُتور وضَعْف الإيمان في النُّفوس، كما بيَّن ذلك رَسُول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم-.

ولا أَجِدُ مَزِيدَ بيانٍ لبيانِ رسول الله ﷺ وقد أُوتِيَ جَوامِعَ الكلام: «**فَاسْأَلُوا اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**».

٧- الذِّكْر.

من أخفِّ العِبادَاتِ وأَيسَرِها وأَعظَمِها أجرًا، فهو خفيفٌ علىٰ البَدَن؛ إذ لا يكون إلَّا باللِّسان مع استِحضَار القلب، ولا يستَلزِم نَفْضَ الكَسَل والقيامَ للوُضوءِ، بل تذكُر الله قيامًا وقعودًا ورقودًا بوُضوء وبغَيرِ وُضوء، وهو يغذِّي الرُّوح ويُذهِب ما بِها من ضعفٍ ويقوِّيها لتستعِيدَ نشاطَها ويذهَبَ ما بِها من فتورٍ وكَسَلٍ.

---

(١) صححه الألباني. انظر: حديث رقم (١٥٩٠) في «صحيح الجامع».

قال ابنُ القيِّم عن منزِلَة الذِّكرِ:

«وهي مَنزِلة القَومِ الكُبْرىٰ التي منها يتزوَّدون، وفيها يتَّجِرون، وإليها دائمًا يَترَدَّدون.

والذِّكر مَنشورُ الوِلايَة الذي مَن أُعطِيَه اتَّصل، ومَن مُنِعَه عُزِلَ، وهو قُوت قلوب القَومِ الذي متىٰ فارَقَها صارت الأَجساد لها قُبورًا، وعِمارَة دِيارِهم التي إذا تعطَّلَت عنه صارت بُورًا، وهو سِلاحُهم الذي يُقاتِلون به قُطَّاع الطَّريق، وماؤُهم الذي يُطفِئون به التِهابَ الطَّريق، ودَواءَ أَسقامِهم الذي متىٰ فارَقَهم انتكَسَت منهم القُلوب والسَّبَب الوَاصِل والعَلاقَة التي كانت بينهم وبين علَّام الغُيوبِ.

إذا مَرِضْنا تَداوَيْنا بِذِكْرِكِمُ فنَتْرُكُ الذِّكرَ أَحيانًا فنَنتَكِسُ

به يستَدفِعون الآفاتِ، ويَستكشِفُون الكُرُبات، وتَهُون عليهم به المُصيباتُ؛ إذا أَظلَمَهم البلاءُ فإليه مَلجَؤُهم، وإذا نزلت بِهم النَّوازل فإليه مَفزَعهم؛ فهو رِياض جنَّتهم التي فيها يتقلَّبون، ورُءوس أَموالِ سعادَتِهم التي بها يتَّجرون، يَدَع القلبَ الحزينَ ضاحِكًا مسرورًا، ويُوصِل الذَّاكرَ إلىٰ المذكور، بل يَدَع الذَّاكر مذكورًا.

وفي كل جارِحَة من الجَوارِح عُبودِيَّة مُؤَقَّتة، والذِّكر عُبودِيَّة القلب واللِّسان وهي غَيرُ مؤَقَّتة، بل هم يُؤمرون بذِكْر مَعبُودهم ومَحبُوبِهم في كلِّ حال: قيامًا وقعودًا وعلىٰ جُنُوبِهم؛ فكما أنَّ الجنَّة قِيعانٌ وهو غِراسُها؛ فكَذَلِك

القُلوب بُورٌ وخَراب وهو عِمارَتُها وأَساسُها.

وهو جِلاءُ القُلوب وصِقالها ودَواؤُها إذا غَشِيَها اعتِلالُها، وكلَّما ازداد الذَّاكرُ في ذِكْره استِغراقًا: ازداد المذكورُ محبَّة إلىٰ لقائه واشتِياقًا، وإذا واطأ في ذِكْرِه قَلبُه لِلِسانِه: نَسِي في جَنبِ ذِكْرِه كلَّ شيء، وحَفِظ الله عليه كلَّ شيء، وكان له عِوَضًا من كلِّ شيء.

به يزول الوَقْر عن الأَسماعِ، والبَكَم عن الأَلسُن، وتَنقَشِع الظُّلمَة عن الأَبصارِ.

زيَّن الله به أَلسِنَة الذَّاكِرين كما زيَّن بالنُّور أبصار النَّاظِرين؛ فاللِّسان الغافِلُ: كالعَينِ العَمياءِ، والأُذُنِ الصَّمَّاءِ، واليَدِ الشَّلَّاءِ.

وهو باب الله الأَعظمِ المفتوح بينه وبين عبده ما لم يُغلِقْه العبدُ بغَفلَتِه.

قال الحَسَن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تفقَّدوا الحَلاوَة في ثلاثة أشياءَ: في الصَّلاة، وفي الذِّكْر، وقِراءَة القُرآن، فإن وَجَدْتُم، وإلَّا فاعلموا أنَّ الباب مُغلَق».

وبالذكر يَصرَع العبدُ الشَّيطانَ كما يَصرَع الشَّيطانُ أهلَ الغَفلَة والنِّسيان.

قال بعضُ السَّلف: إذا تمكَّن الذِّكْر من القلب؛ فإنْ دنا منه الشَّيطانُ صَرَعه كما يُصرَعُ الإنسانُ إذا دنا منه الشَّيطانُ؛ فيجتمع عليه الشَّياطينُ فيقولون: ما لهذا؟ فيُقال: قد مسَّه الإنسِيُّ.

وهو رُوح الأَعمالِ الصَّالِحة؛ فإذا خلا العمل عن الذِّكْر كان كالجَسَد الذي لا رُوحَ فيه، والله أعلم» اهـ[1].

٧- **الحَذَرَ الحَذَرَ من مَكرِ الشَّيطان حالَ الفُتور.**

الشَّيطان هو عدوُّ الإِنسان الأَوَّل، وهو مُتَربِّص به ليلَ نَهارَ، وإن كان يُحارِبه ويُهاجِمُه حالَ نشاطِهِ وقوَّته؛ فهو في حال ضَعفِه وفُتورِه أكثَرُ حربًا وأعنَفُ هجومًا؛ وإذنْ؛ فعلىٰ الإنسان أن يتذكَّر عداوَةَ الشَّيطان، ويَحْذَر منه في حال فُتورِه أكثَرَ من حَذَرِه من ذلك حالَ قوَّتِه ونَشاطِه.

وعلىٰ الإنسان أن يحذر منِ اتِّباع خُطُوات الشَّيطان وتَلبيسَاتِه؛ فقد يدعوك الشَّيطان حالَ فُتورِك وضَعفِ نَفسِك، أن تُجالِس أهلَ الفُسوقِ والمعاصي لِتَدْعُوَهم إلىٰ الطَّاعة والبُعدِ عن المُنكَرات، وهو يريد منك أن ترىٰ العُصاة حالَ مَعصِيَتهم وهم سُعدَاءُ -ظاهرًا- لتتمرَّد عليك نَفسُك، وتَسوقَك إلىٰ المَعصِية سَوقًا، كالدَّابَّة الجائِعَة ترىٰ طعامًا وهي جائِعَة، فتُقبِل عليه، وفي الحقيقة أنَّه ليس طعامًا فيه نَجاتُها، ولكنَّه السُّمُّ الذي فيه هَلاكُها، ولكِنَّها لا تعلم.

وللشيطان أساليب ووسائل لا تنتهي، فالحذر الحذر..

---

(١) «مدارج السالكين (٢/ ٤٥١).

٨- تفقُّدُ الصَّالِحين ومُجالَسَتُهم.

الجُلوس مع الصَّالحين، والقِراءَة عن أَئِمَّة السَّلَف من العُلَماء والعُبَّاد وعن سِيَرهم وأَحوالِهم في السَّير إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا.

قال رسولُ الله ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١).

فإذا كان الرَّجل علىٰ دين خَليلِه، فليُخالِلْ ولْيُجالِسْ أهلَ الصَّلاح والتَّقوىٰ؛ فمَن جالَسَ الصَّالِحين انتَفَع بمُجالَسَتِهم.

وقد جاء في حديث المَلائِكَة الطَّوَّافين الذين يَلتَمِسون أهلَ الذِّكْر: أنَّ الله يغفر لهم ويغفر لِمَن جلس معهم.

قال رسول الله ﷺ: «**فَيَقُولُ الله** جَلَّوَعَلَا: **فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**»(٢).

والمُراد من مُجالَسة الصَّالِحين حالَ الفُتور، ليس فقط الحُصولَ علىٰ ما في ذلك من فضلٍ وأجرٍ، وإنَّما لمُجالَسَتِهم أثرٌ كبير علىٰ النَّفس ، وتَوجِيهِها نحوَ

---

(١) حسنه الألباني. انظر: حديث رقم (٣٥٤٥) في «صحيح الجامع».

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٠٤٥).

الخَيرِ، وإصلاحِ ما بِها من عَطَب وفسادٍ.

٩- العِلمُ عن الله جَلَّوَعَلَا.

فالعِلمُ عن الله من أهمِّ أسباب تَبديدِ الفُتورِ، فمَن تعرَّف علىٰ صفات الخالِقِ جَلَّوَعَلَا أحبَّه، وأقبل عليه بكُلِّيَّته، فالله وَحدَه الذي يُحَبُّ لِذاتِه جَلَّوَعَلَا، وكلُّ مخلوقٍ إنَّما يُحَب من أجل مَنفَعةٍ تَصِل للمَرءِ من خِلالِه، وأمَّا الرَّبُّ جَلَّوَعَلَا فيُحَبُّ لذَاتِه، ولجَميلِ صِفاتِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فتقودُ المحبَّةُ المُحِبَّ إلىٰ طاعة المَحبوب بلا فُتورٍ ولا كَسَل، فيُقبِل علىٰ عبادة الله جَلَّوَعَلَا مُحِبًّا للعِبادَة التي تُقَرِّبه من الله جَلَّوَعَلَا.

قال الإمامُ ابنُ رَجَب:

«**قال بعضُ السلف**: العمل علىٰ المَخافَة قد يُغيِّره الرَّجاءُ، والعملُ علىٰ المحبَّة لا يَدخله الفُتورُ.

ومن كلامِ بعضهم: إذا سَئِم البَطَّالون من بَطالَتِهم، فلن يَسأَمَ مُحِبُّوكَ من مُناجَاتِك وذِكْرِك»(١).

فالجهلُ بصِفات الله جَلَّوَعَلَا يسوِّل للعَبدِ ما هو فيه من فُتور وكَسَل، فإذا

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٤١).

علم صفاتِ ربِّه وخالِقِه فَزِع ولم يَفتُر.

قال ابنُ القيِّم في «طريق الهِجرَتَين»:

«**قال أبو زيد:** «سُقْتُ نفسي إلىٰ الله وهي تبكي، فما زِلْتُ أَسوقُها حتىٰ انسَاقَت إليه وهي تَضحَك».

ولا يزال السَّالِك عُرضَةً للآفات والفُتورِ والانتِكاس حتَّىٰ يَصِل إلىٰ هذه الحالة؛ فحينئذ يصير نعيمُه في سَيرِه ولذَّتُه في اجتِهَادِه وعَذابُه في فُتورِه ووُقوفِه، فتَرىٰ أشدَّ الأشياء عليه ضياعَ شيء من وَقتِه ووُقوفَه عن سَيرِه، ولا سبيل إلىٰ هذا **إلَّا بالحُبِّ المُزعِج**»[1].

والمُزعِج ليست وصفًا للحُبِّ، وإنَّما هي وصفٌ لما يَفعَله الحبُّ في المُحِبِّ؛ إذ يجعَلُه حبُّه لربِّه جَلَّ وَعَلَا مُنزَعِجًا ألَّا يتقبَّل اللهُ منه ما يقدِّمُه من الصَّالحات، مُنزَعِجًا أن يُصِيبَه من الفُتور ما يَعوقُه عن مرضاة ربِّه جَلَّ وَعَلَا.

١٠- الصبر علىٰ العبادة.

معلومٌ أنَّ الإنسان لن يَخرُج من حالَةِ الفُتور إلىٰ حالة النَّشاط إلا بعملٍ يعمَلُه وحَرَكة يتحرَّكُها، وقد مرَّ التَّحذير من حَمْل النَّفسِ علىٰ ما يَثقُل عليها من

---

(١) «طريق الهجرتين» صفحة (٣٢١).

العبادات دَفعَة واحِدَة؛ فتتفلَّت من العبد كما تتفلَّت الدَّابَّة من صاحِبِها في صَحْراءَ مُتَرامِيَة، فتَهلِكُ الدَّابَّةُ ويَهلِك صاحِبُها، ولكنْ عليه أن يَحمِلَها علىٰ العبادات الخفيفة علىٰ النَّفس والبَدَن، الثَّقيلَة في الميزانِ والأَثَرِ؛ كالذِّكر والدُّعاء -كما تقدم-، ثم فليَحْمِلْها إذا ما شَعَر بتحسُّنٍ في حالَتِه علىٰ العِبادَاتِ شيئًا فشيئًا، ولا ييأس إذا ما لم يَجِدْ إقبالًا علىٰ العِبادَة وخُشوعًا فيها، بل عليه أن يَصبِرَ، وليَسْتَعِنْ بالله جَلَّ وَعَلَا فهو المعين سبحانه.

قال رسول الله ﷺ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»[1].

فيلزَمُ المَرء ما يستطيع المُواظَبة عليه من الأعمال؛ فإنَّه إن فعل فقد قَدَّم إلىٰ ربِّه أحبَّ الأعمال إليه: «**أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»، وبه تستَعِيدُ النَّفسُ صِحَّتَها وإِقبالَها علىٰ الطَّاعَة.

قال ابن القَيِّم رحمة الله عليه:

«وقال بعضُهم: تعذَّبْتُ بالصَّلاة عِشرِين سنة، ثم تنعَّمْتُ بِها عِشرِين سنة. وهذه اللَّذَّة والتَّنعُّم بالخِدمَة إنَّما تَحصُل بالمُصابَرَة والتَّعب أولًا، فإذا صَبَر عليه

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٨٣).

وصَدَق في صَبْره أفضىٰ به إلىٰ هذه اللَّذَّة.

قال أبو زيد: «سُقْتُ نفسي إلىٰ الله وهي تبكي، فما زِلْتُ أَسوقُها حتَّىٰ انساقَتْ إليه وهي تضحك».

فعلىٰ العبد أن يتوكَّلَ علىٰ ربِّه جَلَّوَعَلَا، ويُقبِل علىٰ العِبادَة دون أن يُثقِل علىٰ نَفسِه أو يُشَدِّد عليها؛ إذ نَهانا رسول الله ﷺ أن نفعل ذلك، حيث جاء في الحديث:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: «**مَا هَذَا الْحَبْلُ**». قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فتَرَتْ تَعَلَّقَتْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فتَرَ فَلْيَقْعُدْ**»(١).

فلا يحمِلَنَّ أحدٌ علىٰ نَفسِه فيُشْقِيها، لاسيَّما إذا كانت نفسُه فاتِرَةً ضعيفة، ولكنْ فلْيُصَلِّ نَشاطَه، فإذا فَتَر وضَعُف فليَقْعُدْ.

وإذنْ؛ فالعلاج بين الغلوِّ والجفاء ، فليتوكَّل الإنسانُ علىٰ ربِّه، وليُقْبِلْ علىٰ العِبادَة، وليَصْبِرْ عليها إذا ما بدأت حالَتُه في التَّحسُّن، بعدما يُقبِل علىٰ الذِّكر والدعاء، وبعدما يَبتَعِد بنَفسِه عن المُهلِكات؛ من التَّعرُّض للفِتَن ومُجالَسة أهلِ المعاصي، بل عليه أن يُجالِس أهلَ الصَّلاح والتَّقوىٰ ثم ليتوكَّلْ علىٰ ربِّه جَلَّوَعَلَا ويُقبِل علىٰ عِبادَته سبحانه.

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم (١١٥٠).

قال ابن القيم رحمة الله عليه:

«ولو توكَّلَ العَبدُ علىٰ الله حقَّ توكُّلِه في إِزالَة جبلٍ عن مَكانِه، وكان مأمورًا بإِزالَتِه لَأَزالَه»[1].

١١- الخَوفُ مِنَ النَّار.

قال ابنُ رَجَب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إنَّ اللهَ خلقَ الخَلقَ ليَعرِفوه ويَعبُدوه ويَخشَوْه ويَخافُوه، ونَصَب لهم الأدلَّةَ الدَّالَّةَ علىٰ عَظَمتِه وكِبريائه ليَهابُوه ويَخافوه خوفَ الإجلال، ووصَف لهم شِدَّةَ عذابِه ودارَ عقابِه الَّتي أعدَّها لمَن عصاه ليَتَّقُوه بصالِح الأعمالِ، ولهذا كرَّر سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في كتابِه ذِكرَ النَّار وما أعدَّه فيها لأعدائه مِن العذاب والنَّكال، وما احْتَوت عليه مِن الزَّقُّوم والضَّريع والحَميم والسَّلاسل والأغْلَال، إلىٰ غير ذلك ممَّا فيها من العَظائم والأهْوَال، ودَعَا عبادَه بذلك إلىٰ خَشيَتِه وتَقْوَاه والمُسارعَةِ إلىٰ امتثالِ ما يأمُر به ويُحبُّه ويَرضَاه، واجتنابِ ما يَنهىٰ عنه ويَكرَهُه ويأْبَاه.

فمَن تأمَّل الكتابَ الكريمَ وأدارَ فِكرَه فيه وَجَدَ من ذلك العَجَبَ العُجَاب، وكذلك السُّنَّة الصَّحيحة الَّتي هي مُفسِّرَة ومُبيِّنة لمَعاني الكتاب، وكذلك سِيَر

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨١).

السَّلف الصَّالح أهل العِلْم والإيمان مِن الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسَان، مَنْ تَأمَّلَها عَلِم أحوالَ القوْمِ وما كانوا عليه مِن الخَوف والخَشيَة والإخْبَات، وأنَّ ذلك هو الَّذي رقَّاهم إلىٰ تلك الأحْوالِ الشَّريفة والمَقامَات السَّنيَّات، مِن شِدَّة الاجتهادِ في الطَّاعات والانْكِفَاف عن دقائقِ الأعمالِ والمَكرُوهات فَضلًا عن المُحرَّمات»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القَدْر الوَاجبُ من الخَوفِ ما حَمَل علىٰ أداء الفَرائضِ واجتنابِ المَحارم، فإن زاد علىٰ ذلك، بحَيث صار باعِثًا للنُّفوس علىٰ التَّشمير في نوافِلِ الطَّاعات والانْكِفاف عن دقائق المَكرُوهات والتَّبسُّط في فُضُول المُباحات، كان ذلك فَضلًا مَحمودًا، فإن تزايدَ علىٰ ذلك بأن أَورَث مَرضًا أو مَوتًا، أو هَمًّا لازِمًا، بحيث يَقطَع عن السَّعي في اكتسابِ الفَضائل المَطلوبة المَحبوبة لله عَزَّوَجَلَّ لم يَكُن مَحمُودًا»(٢).

وبهذا تُعرفُ أهميَّةُ الخوفِ من عذابِ الله عَزَّوَجَلَّ لكُلِّ سالِكٍ وسائرٍ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، إذ به يشتدُّ سَيرُه ويَخشىٰ الوُقوفَ أو التَّعثُّرَ، وبما مَرَّ تَعرفُ -أيضًا- الحدَّ الفاصِلَ بين الخَوفِ المَحمود والخَوفِ المَذمُوم، تَعرِفُه مِن ثَمَرتِه الَّتي يُثمِرُها فيك مِن عَمَل.

---

(١) «التخويف من النار» لابن رجب (٦، ٧).

(٢) «التخويف من النار» لابن رجب (٢١).

البابُ الثَّانِي

الانتِكاسُ



فصل في تعريف الانتِكاس

لمَّا كان الانتِكاسُ مَعنيًّا في هذا الكتاب بالإيضاح والبيان كان لابُدَّ من تَعريفِه، حتىٰ لا يختَلِط أمرُه بأمْرِ الفُتور، فيَقعَ ما يَقع من آثارِ ذلك علىٰ إيمان المَرءِ، وقد مرَّ بيانُ ذلك في فصل «حقيقة الإيمان»؛ إذ عَرَضْنا بعضَ مَخاطِرِ اختِلاطِ تعريف الفُتور بتَعريف الِانتِكاسِ، وهو ما وَقع فيه بعضُ المصنِّفين في هذا الباب.

الانتِكاسُ لغةً:

جاء في «لسان العرب» لابن منظور:

«نكَسَ: النَّكْسُ: قَلْبُ الشَّيءِ علىٰ رأسِه، نكَسَه يَنْكُسُه نكْسًا فانْتَكَسَ. ونكَسَ رأَسَه: أَماله، ونكَّسْتُه تَنْكِيسًا. وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]. والنَّاكِسُ: المُطأْطِئ رأْسَه. ونكَسَ رأْسَه: إِذا طأْطأَه من ذُلٍّ»(١).

---

(١) «لسان العرب» (٦/ ٢٤١).

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

[يس: ٦٨].

قال الإمام الطَّبري في تَفسِيره للآية:

«يقول تعالىٰ ذكره: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ فنمُدُّ له في العمر ﴿نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ نرُدُّه إلىٰ مثل حالِهِ في الصِّبا من الهَرَم والكِبَر، وذلك هو النَّكْس في الخلق، فيَصِير لا يعلم شيئًا بعد العلم الذي كان يعلَمُه».

وأما اصطلاحًا:

الانتِكاسُ: هو تغيُّر الحال من خيرٍ لشرٍّ، من إسلامٍ لكُفرٍ، ومن سُنَّة لبِدعَة، ومن طاعة إلىٰ مَعصِيَة.

قال رسول الله ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ، طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

وفي الحديث: أنَّ النَّبيَّ ﷺ يدعو علىٰ هذا الذي يَعبدُ ما يعبُد مِن الأموال والثِّياب؛ إذ سخَّر الله له المال والثِّيابَ وجميعَ ما حوله ليخدُمَه في هذه الحياة؛ ليَصِل إلىٰ هدفه، وهو عبادة الله وحده، والوصولِ إلىٰ مَرضاتِه سبحانه، فعبَدَها من دون الله وانتكَس، كالذي قال عنه ربُّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿**أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ** ٢٢﴾ [الملك: ٢٢].

فلمَّا عبد ما سخَّره الله له كان الجزاءُ من جنس العمل، يدعو عليه الرسول ﷺ بأنْ يَتعَس في الحياة؛ - إذ عَبَد المالَ بِهَدف الوُصولِ للسَّعادَة وهَيهَاتَ!- وبأنْ يَنتكِس في جميع أَحوالِه كما انتكَسَتْ فِطْرَتُه وعَبَد ما سَخَّره الله له.

نسأل اللهَ السَّلامَةَ والعافِيَةَ.

وعلىٰ ما مرَّ؛ فإن الانتِكاسَ هو تغيُّر الحالِ من خيرٍ إلىٰ شَرٍّ.

فمن النَّاس مَن انتِكاسَتُه أن يتحوَّل من زاهِدٍ عابِدٍ مُعرِضٍ عن الدُّنيا إلىٰ مُنشَغِلٍ بالدُّنيا مشغولٍ بِها عن الآخِرَة، بل مُعرِضٍ عن الآخِرَة مُقبلٍ علىٰ الدنيا، ومنهم مَن انتِكاسَتُه أن يتحوَّل من سُنِّيٍّ يسيرُ علىٰ سنَّة رسول الله ﷺ إلىٰ مُبتَدِع مُحدِثٍ في دين الله جَلَّ وَعَلَا.

ومنهم مَن يَنتكِس فيتحوَّل من الإِسلامِ إلىٰ الكُفرِ عياذًا بالله جَلَّ وَعَلَا وَحدَه.

وسوف يأتي تَفصِيلُ ذلك، بإذن الله جَلَّ وَعَلَا.

وقد جاءت الآيات القُرآنِيَّة والأَحادِيثُ القُدُسِيَّة والأحاديث النَّبوِيَّة مُبيِّنةً لذلك، ومُحذِّرة منه:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾

[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

وجاء في الحديث القدسي قوله تعالىٰ: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»(١).

وعَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْتَقَىٰ هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا؛ فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ عَسْكَرِهِ وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَىٰ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالُوا: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلانٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ أَبَدًا.

قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ. قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَىٰ سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ؛ فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «**وَمَا ذَاكَ**». قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّىٰ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(١).

وغير ذلك من الآياتِ والأحاديث الوارِدَة في الانتِكاس وتغيُّر الأَحوالِ من حالٍ يُرضِي اللهَ جَلَّ وَعَلَا إلىٰ حالةٍ تُغضِبُه سبحانه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه

فصلٌ في أَنواعِ الانتِكاسِ

بعدما مرَرْنا علىٰ معنىٰ الانتِكاسِ لغةً واصطلاحًا اختصارًا، وذكرْنا أنواعَهُ جملةً دون تفصيل، في هذا الفَصلِ نَسرُد أَنواعَه مع شيء يسير من التَّفصيلِ.

وقد مرَّ معنا أن الانتِكاسَ هو قَلْب الشَّيءِ رأسًا علىٰ عَقِبٍ، يقال: انتكَس الرَّجل؛ أي: انقلب رأسًا علىٰ عَقِبٍ، إمَّا أن يكون ذلك حَرفِيًّا؛ أي: انقلب رأسًا علىٰ عَقِب حقيقةً، وإما أن يُراد بِها انقَلَب حالُه رأسًا علىٰ عَقِب، فتبدَّل ما كان فيه من خَيرٍ لشرٍّ، وما كان من صِحَّة لضَعفٍ، وما كان من غنًىٰ لفقر.. وهكذا.

وما يخُصُّنا فيما مرَّ في هذا الكتاب هو انقِلابُ الحالِ من خيرٍ لشرٍّ، وذلك علىٰ أنواع.

أنواعُ الانتِكاس:

١ - الانتِكاسُ عن الإِسلامِ إلىٰ الكفر.

انقِلابُ المُسلِم من الإسلام إلىٰ الكُفرِ مِن أعظَمِ أنواع الانتِكاسِ وأشدِّها وأخطَرِها عليه في الدنيا والآخِرَة.

فتَجِدُ الإنسانَ قد وُلِد مُسلِمًا، أو دخل في الإسلام بعد أن كان غَيرَ مُسلِمٍ، فتَعرِض عليه أمور ويتعرَّض لأسبابِ الانتِكاسِ عن دين الله جَلَّوَعَلَا، ولا يتوقَّىٰ منها، فيَجرِفُه الشَّيطانُ إلىٰ الانتِكاسِ عن الإسلام إلىٰ الكُفر، سواء بأن يصير مُلحِدًا أو نصرانيًّا أو غير ذلك من الأديان الباطِلَة، أو عابدًا للشيطان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

قصَّة بِرْصِيصَا:

ومن ذلك: ما رُوِي عن عابدِ بني اسرائيل بِرْصِيصَا.

وقد ذكر القِصَّة الإمامُ الحافِظُ ابنُ كثيرٍ -رحمة الله عليه- في «البداية والنهاية» فقال:

«قصَّة بِرْصِيصَا: وهي عكسُ قضِيَّة جُرَيجٍ، فإنَّ جُرَيجًا عُصِمَ، وذلك فُتِنَ.

قال ابن جرير: عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

قال ابن مسعود: كانت امرَأَة تَرعَىٰ الغَنَم، وكان لها إخوَة أربعَةٌ، وكانت تأوي باللَّيل إلىٰ صَومَعة راهبٍ، قال: فنزل الرَّاهِب ففَجَر بِها فحَمَلت، فأتاه الشَّيطانُ فقال له: اقتُلْها ثم ادْفِنْها، فإنَّك رجل تُصَدَّقُ ويُسمَع قَولُك! فقَتَلها ثم

دَفَنها، قال: فأتىٰ الشَّيطانُ إلىٰ إخوَتِها في المنام فقال لهم: إنَّ الرَّاهب صاحِبَ الصَّومَعَة فَجَر بأُختِكُم فلمَّا أَحبَلَها قَتَلها ثم دَفَنها في مكان كذا وكذا.

فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيتُ البارِحَة رؤيا ما أدري أقصُّها عليكم أم أَترُك؟ قالوا: لا بل قُصَّها علينا، قال: فقصَّها، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيتُ ذلك، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيتُ ذلك. قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيءٍ، فانطلقوا فاستَعْدَوا [استعانوا بـ] مَلِكهم علىٰ ذلك الرَّاهِب، فأَتَوه فأَنزَلُوه.

ثم انطلقوا به، فأتاه الشيطان، فقال: إنِّي أنا أَوقَعْتُك في هذا، ولن يُنجِيك منه غيري، فاسجُدْ لي سَجْدَةً واحِدَة وأُنجِيك ممَّا أَوْقَعْتُك فيه! قال: فسَجَد له! فلمَّا أتوا به مَلِكَهم تبرَّأ منه وأُخِذ فقُتِل.

وهكذا رُوي عن ابن عباس وطاوس ومُقاتل ابن حيَّان نحو ذلك.

وقد رُوي عن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بسياق آخر... عن أبي إسحاق: سمعتُ عبدَ الله بن نَهِيكٍ، سمعت عليًّا يقول: إنَّ راهبًا تعبَّد ستِّين سنة، وإنَّ الشيطان أراده فأعياه... [إلىٰ أن قال]: فسجد له، قال: إنِّي بريءٌ منك إنِّي أخاف اللهَ ربَّ العَالَمين، فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾»[1].

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ١٦٢).

ومن ذلك ما جاء في الحديث القدسي: «**قَالَ تَعَالَىٰ: وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»[(١)].

وأمَّا عن كيفِيَّة اجتِيَالِ الشَّياطِين لبَعضِ عباد الله المُؤمِنين عن دِينِهم فهذا سَيَرِد في أسباب الانتِكاسِ عن الإسلامِ والوِقايَة منه إن شاء الله رب العالمين.

٢- الانتِكاسُ عن السُّنَّة إلىٰ البدعة.

ومن أنواع الانتِكاسِ أيضًا: أن يكون المَرء علىٰ السُّنَّة اعتقادًا وعملًا، فينتكِس عنها إلىٰ البدعة، فينتكِس من السُّنَّة إلىٰ البدعة، ومعلوم أن السُّنَّة واحدةٌ، والبِدَع كثيرة ومتناقضة، فلَرُبَّما انتكَس عن منهج أهل السُّنَّة -الذي هو ما كان عليه الرَّسول ﷺ وأصحابُه- إلىٰ منهج الخَوارِج، أو إلىٰ منهج الحدَّادِيَّة الغُلاة، أو إلىٰ منهج الأَشاعِرَة أو المُعتَزِلة، أو انتكَس عن السُّنَّة إلىٰ قول من أقوال هؤلاء الفرق المُنحَرِفة المُبتَدِعة.

ولا شك أنَّ السَّالك إلىٰ الله لابُدَّ أن يسير علىٰ نَهج الرَّسول ﷺ وأصحابِهِ رِضوَان الله عليهم، ولا يَحِلُّ له أن يَسلُك طريقًا آخَرَ، أو ينتَهِج نَهجًا غير نَهجِه ﷺ، وقد جعل اللهُ الطَّريق إلىٰ الجنَّة واحدًا، وهو الطريق خلف رسول الله ﷺ، فلن

---

(١) رواه مسلم.

يدخل أحدٌ الجنَّة من أمَّة محمد ﷺ إلا إذا جاء خلْفَه علىٰ مِلَّته ونَهجِه ﷺ، وأمَّا الفِرَق المُنحَرِفة من الخَوارِج والمُرجِئَة والمُعتَزِلَة والجَهمِيَّة والأَشاعِرَة وغَيرِهم من الفِرَق التي حذَّر منها الرسولُ -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم- فهي كلُّها مُتَوَعَّدةٌ بالنَّار:

عن أبي عامرٍ الهوزَنِيِّ: أنه حجَّ مع مُعاوِيَة فسَمِعه يقول: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا فذَكَر: «**أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَكُمْ تَفَرَّقُوا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فِي الْأَهْوَاءِ، أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فِي الْأَهوَاءِ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، أَلَا وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِي أُمَّتِي قَوْمٌ يَهْوَوْن هَوًىٰ يَتَجارَىٰ بِهِم ذَلِكَ الْهَوَىٰ كَمَا يَتَجَارَىٰ الْكَلَبُ بِصَاحِبِه، لَا يَدَعُ مِنْه عِرْقًا وَلَا مَفْصِلًا إِلَّا دَخَلَهُ**»(١).

وفي رواية أخرىٰ: قال ﷺ: «**وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ غَيْرَ وَاحِدَةٍ**»، قيل: وَما تِلكَ الواحِدَةُ، قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»(٢).

وإذنْ؛ مَن انتكَس عن السُّنَّة إلىٰ الفِرَق والجماعات المُنحَرِفة فقد دخل في وَعيدِ: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**».

---

(١) صححه الألباني في «ظلال الجنة».

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٢١٨)، رقم (٤٤٤).

وعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّىٰ إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ وَكَانَ رِدْئًا لِلْإِسْلَامِ، غَيَّرَهُ إِلَىٰ مَا شَاءَ اللهُ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَىٰ عَلَىٰ جَارِهِ بِالسَّيْفِ وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**»، قال: قلتُ: يا نبيَّ الله، أَيُّهما أولىٰ بالشِّرْك: المَرمِيُّ أم الرَّامي؟ قال: «**بَلِ الرَّامِي**». اهـ[1].

وهذا الوَصفُ الذي جاء عن رَسُول الله ﷺ تراه مُتطابِقًا مع الخَوارِج مُطابَقَة تامَّةً.

قال الإمام الترمذي : « وَقَدْ رُوِىَ فِى غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ وَصَفَ هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ إِنَّمَا هُمُ الْخَوَارِجُ وَالْحَرُورِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْخَوَارِجِ. »[2]

ومعلومٌ أنَّ البِدعَة أَعظَمُ خطرًا من المَعصِيَة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه:

«قال أَئِمَّة المُسلِمين كسُفيان الثَّورِيِّ: إنَّ البدعة أحبُّ إلىٰ إبلِيسَ من المَعصِيَة؛ لأنَّ البدعةَ لا يُتاب منها، والمَعصِيَة يُتاب منها.

ومعنىٰ قَولِهم: **إنَّ البدعة لا يُتاب منها**: أنَّ المُبتَدِع الذي يتَّخذ دِينًا لم

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه»، وحسنه الألباني في «الصحيحة».

(٢) انظر سنن الترمذي في تعليقه علىٰ الحديث رقم ٢٣٤٧

يَشْرَعْه اللهُ ورسولُه قد زُيِّن له سُوءُ عمله فرآه حسنًا فهو لا يتوب»[1].

وإذنْ؛ فالنَّوع الأَخطَر بعد الانتِكاسِ عن الإسلام هو الانتِكاسُ عن السُّنَّة إلىٰ البِدعَة، عياذًا بالله ولياذًا بجنابه الرحيم.

٣- الانتِكاسُ عن الطَّاعة إلىٰ المَعصِيَة.

وهو أن ينتَكِس المَرءُ من كَونِه طائعًا لِلَّه لا يُخالِف أَوامِرَه ولا يَقتَرِف نَواهِيَه، إلىٰ كَونِه مُقبلًا علىٰ المَعصِية صادًّا عن الطَّاعة مُدبرًا عنها، وهذا النَّوع هو الأَشهَر بين المُسلِمين وإن كان الأقلَّ خطرًا، إلَّا أنَّه لانتِشَارِه فهو الأهمُّ في التَّبيِين والتَّوضيح، وسيأتي بيانُه في الفرق بين الفُتور والانتِكاسِ.

* * *

(١) «أمراض القلب وشفاؤها» صفحة (٣٩).

فصلُ الفَرق بين الفُتورِ والانتِكاسِ

ممَّا مرَّ يتَّضح أنَّ هناك فرقًا كبيرًا واضحًا بين الفُتور والانتِكاسِ، وإنْ كانا يَتشابَهان في أنَّ مَن فَتَرت حالَتُه قد تحوَّل من حالٍ إلىٰ حالٍ، وكذا مَن انتكَس فقد تحوَّل أيضًا من حالٍ إلىٰ حالٍ، فهو تشابُهٌ في أصل المعنىٰ اللُّغَوي لا الاصطِلاحيِّ الشَّرعيِّ؛ إذ مَن فَتَرت حالَتُه قد تحوَّل من النَّشاط والهِمَّة العالِيَة إلىٰ الكَسَل، وإذنْ فآفَتُه الكَسَل، وهو -أي: الكَسَل- الذي قد يَنتُج عن ضعفٍ بشريٍّ، أو مَعصِيَة ألمَّ بِها العبد فأَضعَفَت عزْمَ قَلبِه.

وأمَّا الانتِكاسُ: فإنَّه تحوُّلُ القَصدِ من إِسلامٍ لكُفرٍ، ومن سنَّة لبدعة، ومن طاعة إلىٰ مَعصِية، فالمُنتكِس لا نقول: تثقُل عليه العبادَة؛ وإنَّما هو في الحقيقة إمَّا مُدبِر عن الإسلام بالكُلِّيَّة، أو عن السُّنَّة بالكُلِّيَّة -أو عن شيءٍ منها-، أو عن الطَّاعة بالكُلِّيَّة.

وإذنْ؛ فالفَرقُ الجوهَرِيُّ بين الفُتور والانتِكاس: هو أنَّ الفُتورَ فتورُ العَزمِ، وأمَّا الانتِكاسُ هو انتِكاسُ القَصدِ والغايَة.

ويَشتَرِك الفُتور مع الانتِكاسِ في نوعٍ واحدٍ: وهو فُتور المُنافِقين، والذي عَنْوَنْتُ عليه باسم «الفُتور الدَّائم»؛ فهنا يَشتَرِك فُتور العمل مع انتِكاس القَصدِ والغايَة من جِهَةٍ؛ لأنَّ فُتور المُنافِقِين لم يُقصَد به الفُتور علىٰ أصل المعنىٰ اللُّغويِّ، فلم يَأتِ بعد نشاطٍ، وإنَّما هو فُتور بمعنىٰ كَسَلٍ لم يسبِقْه نشاطٌ؛ إذ مَصدَرُه هو انحِرافُ القلب عن القصد الصَّحيح، فالمُنافق يُظهِر ما لا يُبطِن، ولِذَلِك فإنَّه لا يجد لعَمَله طاقةً إيمانِيَّة تُنَشِّطُه وتقوِّيه، فهو عملٌ لا أصل له.

غير أنَّه يَختلف عن الِانتِكاسِ من جهة أخرىٰ، وهي أنَّ الانتِكاسَ يسبِقُه ضدُّه من الإيمان، فينتكِس صاحِبُه عن الإِسلام إلىٰ الكُفر أو النِّفاق.

وإذنْ؛ ففُتور المُنافِقين وانتِكاسُ المُنتكِسين عن الإسلام إلىٰ النِّفاق يتَّفِقان من حيثُ المآلُ، ويختَلِفان من حيثُ النَّشأةُ، ففُتور المُنافِق لا يُشترَط فيه أنه قد سُبِق بإيمانٍ، وأمَّا انتِكاسُ مَن انتكَس عن الإسلام فيُشترَط فيه اعتِناقُه الإسلام أولًا ثم الرِّدَّة عنه.

وأما تحوُّل الطَّائع من إقبالٍ علىٰ الطَّاعة إلىٰ فُتور عنها وكَسَل وتثاقُلٍ، فهذا لا يُعَدُّ انتِكاسًا؛ إذ مازال عازِمًا القصدَ مُحِبًّا للخَيرِ، ولكِنَّه يجد فُتورًا وضعفًا في العَمَل؛ أي: علىٰ جَوارِحه دُون قلبه، وإن أصاب عزمُ القلب شيئًا من الضَّعف فما زال فيه من أصل الإقبال علىٰ الطَّاعة والبُعد عن المَعصِية، وما زال

قَصدُه إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، علىٰ عكس حال المُنتكِس الذي إذا ما انتكَس عن الطَّاعة إلىٰ المَعصِيَة فإنَّه يُدبِر بكُلِّيَّته، وأَوَّلُ ما يُدبر منه قلبُه، فتَراه صادًّا عن الطَّاعة مُبتَعِدًا عنها ولو كان نشيطًا غيرَ فاتِرٍ، فإذا نَشِطَ ازداد في اقتِرافِ المعاصي؛ فهذا قد تحوَّل قصدُه عياذًا بالله، فنسأَلُ اللهَ السَّلامة والعافِيَة.

* * *

فصلٌ في أَسبابِ الانتِكاس عن الإِسلامِ
والوِقايَة منه

إذا تَرَك المَرءُ الإِسلامَ إلىٰ الكُفر فقد ارتدَّ عنه وانتكَس، وهو -كما مرَّ- أخطَرُ أَنواع الانتِكاسِ، وإن كان أقلَّها حُدوثًا بين المُسلِمين، غيرَ أنَّ له أسبابًا مَن توقَّاها وابتعَد عنها فإنَّه بذَلِك قد وَقَىٰ نَفسَه منه.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَخْبَرَهُ مِنْ فِيهِ إِلَىٰ فِيهِ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّأْمِ إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ -ﷺ إِلَىٰ هِرَقْلَ -يَعْنِي عَظِيمَ الرُّومِ- قَالَ: وَكَانَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ عَظِيمِ بُصْرَىٰ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَىٰ إِلَىٰ هِرَقْلَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَدَخَلْنَا عَلَىٰ هِرَقْلَ فَأَجْلَسَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا. فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي، ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ

لَهُ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَايْمُ اللهِ، لَوْلا مَخَافَةَ أَنْ يُؤْثَرَ عَلَيَّ الْكَذِبُ لَكَذَبْتُ.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُ.. هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا»(١).

وهذا الذي مرَّ ذِكْره يوضِّح لك من كلام أبي سُفيان -رِضوَان الله عليه- ولم يَكُن في هذه الواقِعَة قد أسلم، بل كان كافرًا يُحارِب رسولَ الله ﷺ، ويخشىٰ أن يتَّبِعَه هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّوم، فلمَّا سأله هِرَقْلُ: هل يرتدُّ أحدٌ من المسلمين عن دينهم سَخْطَةَ له - يعني: سَخَطًا علىٰ ما في الدِّين من شرائِعَ أو عباداتٍ أو غير ذلك -؟ فقال أبو سفيان - وكان وَقتَها كافرًا كما مر- فقال: لا؛ يعني مَن دخل في الإسلام لا يَخرُج منه ساخِطًا من دينه.

هذا الثَّبات الذي كان عليه أَصحابُ رَسُول الله ﷺ كان في وَقتِ الاستِضعَاف والتَّضحِيَة من أجل الدِّين، فكان الرَّجل منهم يُضَحِّي -وكذا المرأةُ- بكلِّ ما يَملِك لكي يَتْرُكوه علىٰ الإسلام فقط، واليومَ يرتدُّ مَن يرتدُّ عن دين محمَّد ﷺ دون بلاءٍ أو امتِحانٍ، وذلك لأنَّهم يُعَرِّضون أَنفُسَهم لمُضِلَّات الفِتَن وأَسبابِها مما لا يَقْوَوْن عليه، فينتَكِس مَن ينتَكِس مرتدًّا عن الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

وهذه قصَّةُ جَبَلَةَ بن الأَيْهَمِ:

جاء في كتاب «المُنتَظِم في تاريخ المُلوك والأُمَم» قصَّتُه، وهي: «أنَّه لما أسلم جَبَلَةُ بن الأَيْهَم الغسَّانِيُّ، وكان من ملوك جَفْنَة، وذلك في خلافة عُمَر، وكتب إلىٰ عمر بإسلامه، ويَستأذِنُه في القُدوم عليه، فسُرَّ عمر بذلك وأذِن له في القُدوم، فخرج في خمسين ومائةٍ من أهل بيته، حتىٰ إذا قارب المدينة عَمَد إلىٰ أَصحابِه فحَمَلهم علىٰ الخَيلِ وقلَّدَها قَلائِدَ الفِضَّة، وألبَسَهم الدِّيباجَ والحَرِيرَ، ولَبِس تاجَهُ وفيه قُرْطُ مَارِيَّة جَدَّتِه، وبلغ عمر، فبعث إليه بالنُّزُل هنالك، ثم دخل المدينة في هَيئَتِه، فلم تَبْقَ بِكْر ولا عانِسٌ إلَّا خَرَجت تنظُر، فدخل علىٰ عُمر فرحَّب به، ثم أقام أيَّامًا، وأراد عُمَر الحجَّ، فخَرَج معه، وكان الناس يتعجَّبون من هَيئَتِه، فبينَا هو يطوف بالبيت وطِئَ رجلٌ من بني فَزارَةَ إِزارَه من خَلفِه فانحلَّ، فرفع يده فهَشَم أنف الفَزَارِيِّ، فمضىٰ يستعدي عُمَر عليه، فبعث إليه، فأتىٰ.

فقال عمر بن الخطاب -رضوان الله عليه- لجَبَلَةَ: هَشَمْتَ أنفَ الرَّجل؟

قال: نعم، تعمَّد حلَّ إزاري، ولولا حُرمة الكعبة لَضرَبْتُ بالسَّيف بين عَينَيْه.

فقال عمر: أمَّا أنت فقد أَقْرَرْتَ، فإمَّا أن تُرضِي الرَّجلَ وإلا أَقَدْتُه مِنكَ.

قال جَبلَة: أوْ خَطَرٌ هو لي؟

قال عُمَر بن الخطَّاب: نعم.

قال: كيف وأنا مَلِك وهو سُوقَة؟

قال عمر: الإسلام جَمَعَكُما.

قال: والله لقد ظننْتُ أنِّي أكونُ في الإسلام أعزَّ منِّي في الجاهلِيَّة.

قال عُمر: هو ما ترىٰ.

فقال: إذنْ أَتَنَصَّرُ.

قال: إنْ فَعَلْتَ قَتَلْتُكَ.

واجتمع من حيِّ الفزاريِّ [الذي ضربه جَبَلَة]، وحيِّ جَبَلَة علىٰ باب عمر خلق كثير.

فقال جَبَلَة لعمر بن الخطاب: أنا أنظُرُ في هذا الأَمرِ لَيْلَتي هذه.

فانصرف إلىٰ منزله، فلما ادْلَهَمَّ اللَّيلُ تحمل بأَصحابِه إلىٰ الشَّام في خَمسِمِائَة حتَّىٰ دخل القُسطَنطِينِيَّة في زمن هِرَقْل فتنصَّر وقَومُه، فأَقطَعَه [أي: أعطاه] هرقلُ ما شاء، وأَجْرَىٰ عليه ما شاء وجَعَلَه من سُمَّارِه». اهـ.

فقد فُتن الرجل بكِبْره وعُجْبِه بنَفْسِه واحتِقَارِه للنَّاس، فلمَّا وُضع في أَوَّل اختِبَارٍ لحقيقة إيمانه رَسَب في الاختبار وخَسِر الآخِرَة، واستَجْلَب علىٰ نَفْسه من غَضَب ربِّه وعقابه ما استَجْلَب.

وفي قَصَص المرتدِّين المُنتكِسين عن الإسلام بيانُ أسباب رِدَّتِهم وانتِكاسِهم، والعِظَةُ والعِبْرة إنَّما تكون لمَن كان له قلب.

وسوف أَسرُد بعض أَسبابِ الانتِكاسِ عن دين الإسلام العظيم، وفي سَرْدِها بيانُ الوِقايَة منها.

❋ ❋ ❋

أَسبابُ الانتِكاسِ عن الإِسلامِ

١- الجهلُ بحَقِيقَة الإسلامِ.

إنَّ من آفَةِ هذا الزَّمان الذي نحياهُ انصرافَ أكثَرِ المُسلِمين عن تعلُّم دِينِهم، فيُولَد المَرءُ مسلمًا، ويعيش في مُجتَمعٍ مسلم، وربَّما يموت ولا يُقبِل علىٰ كتاب ربِّه متأمِّلًا، ولا علىٰ سنَّة نبيِّه ﷺ متفحِّصًا، بل لا يُكلِّف نفسه أن يسأَل عمَّا يجب عليه تعلُّمُه من مسائلَ في الزَّواج والطَّلاق الذي ربَّما تَعرِضُ له مرَّة في حياته، بل في البَيعِ والشِّراء الذي هو واقِعٌ منه بكَثْرةٍ كثيرةٍ في حياتِه، بل ربَّما لا يسأل عن الصَّلاة والصَّوم اللَّذَين هما عِماد الدِّين، ويحتاج إلىٰ تعلُّمِهما وجوبًا عليه؛ إذ فَرَض الله عليه خمسَ صَلَوات في اليوم واللَّيلة، ويجب عليه صِيامُ رَمَضان، وكذلك الكفَّارات من تكفيرٍ ليَمينٍ وما أشبَهَ.

والأشدُّ من ذلك -مع شدَّة ما مرَّ- أنَّه ربَّما يعيش حياتَهُ لا يعرف من التَّوحيد إلَّا اسمه عياذًا بالله جَلَّوَعَلَا، فضلًا عن أن يَعرِف الشِّرْك مَعرِفَةً كامِلَةً لكيلا يقَعَ فيه فيَنقُضَ إِيمانَه وهو لا يشعُرُ.

قال رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم-: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ**»(١).

ومعلومٌ أنَّه -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم- هو معلِّم الدُّنيا التَّوحيدَ، ومبلِّغُ رسالَةِ ربِّه جَلَّوَعَلَا، ولا يوجد في هذا الوُجودِ من البَشَر مَن هو أَعلَم منه ﷺ، غَيْرَ أنَّه يعلِّمُنا أن نستَعِيذَ بالله من أن نَقَع في الشِّرْك سواءً بعِلم أو بغَيرِ علم.

ففي الحديث: الحثُّ علىٰ تعلُّم التَّوحيد، وبَذْل الجُهدِ لمَعرِفَة الشِّركِ وأَبوابِه ليَنجُوَ الإنسانُ من الوُقوع فيه وهو لا يعلم؛ إذ طلب المَغفِرة من الجهل ببابٍ من أَبوابِ الشِّرك مع الوُقوع فيه دليلٌ علىٰ أنَّ الإنسان يأثَمُ إذا وَقَع فيه مع جَهلِه به؛ إذ يجب عليه أن يتعلَّم ما يَمنَعُه من الوُقوع في الشِّرك كلِّه كبيرِه وصغيرِه.

وإذنْ؛ فليَستَعِذِ الإنسانُ منَّا بالله جَلَّوَعَلَا أن يَقَع في الشِّركِ وهو يعلم، ويَستَغفِرْه عن تَقصيرِه في تعلُّم ما يُنجِيه من الوُقوع في الشِّرك وهو لا يعلم.

ثم إذا ما تعلَّم التَّوحيد فعليه أن يمرِّرَه علىٰ قلبه ليُطَهِّرَه به، ويُنَقِّيَه من

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» برقم (٥٥١).

أَغلالِ الشِّرك وكلِّ ما يُعَكِّر صَفْوَ التَّوحيد في القلب، فعِلمُ التَّوحيد ليس كلامًا يقال، وإنَّما هو علمٌ تَنبني عليه الحياةُ كلُّها.

فلتُقْبِل علىٰ أسماء ربِّك جَلَّوَعَلَا لتَعرِفَه بأَسمائِه الحُسنَىٰ، وكذلك صِفاتِه المُثلَىٰ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا ما عرفْتَ أسماءَهُ وصفاتِهِ فلْتَعْرِف أَفعاله جَلَّوَعَلَا، لكي توحِّدَه حقَّ التَّوحيد ولا تُشْرِكَ به، فتَعتَقِدَ أنه وحده هو الربُّ الخالِقُّ الرازِقُ المدبِّر؛ وعليه فهو المَعبُود المألُوه سبحانه، فتعبُدَه وحدَه، وتَستَغِيثَ به وَحدَه، وتَستَعِينَ به وحدَه، وتصرِفَ له عباداتِ القلب والجَوارِح والتي لا تُصرَف إلا له وحدَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومن عِلم التوحيد: أن تعرِفَ أدلَّة وُجودِه سبحانه الشَّرعِيَّة والعِلمِيَّة، حتىٰ لا تَغتالَك شياطِينُ الإلحادِ الجَدِيدَة، فهَؤُلاءِ المَرضَىٰ الذين هم في الحقيقة يَعبُدون مَن ألحد من عُلَماء المادَّة، ويَكفُرون بمَن لم يُلْحِد من العُلَماء، هَؤُلاءِ الذين يتَّخِذُون البَشَر مصدرًا للعَقِيدَة، فيَعتَقِدون -وإن رَغِمت أنوفهم- نعم، يعتقدون أنَّ الطَّبيعة هي التي خَلَقت الكونَ، وغايَة ما هُنالِك أنَّ من عُلَمائِهم مَن استخْلَص بعضَ القَوانِين التي توضِّح التَّفسير العلمي لبعض الظَّواهر الكونِيَّة، فيظنُّون أنَّ القَوانِين التي توضِّح ما يقع في الكَون هي الصَّانِعة بذاتِها، لا هي المفسِّرة لطريقة صُنع الصَّانِع، فيَفعَلُون كما تفعل الشَّياطينُ، يأتون بحقيقة

علمِيَّة ويغلِّفونَها بالأَكاذيب والخِداع ليظنَّ الظانُّ أنَّ مَن خالَفَهم وأثبت وُجود الخالِقِ فقد خالف العِلمَ والواقِعَ! وهَيْهَاتَ!

ونعود، فإذا تعلَّمْتَ التَّوحيدَ وطبَّقْتَه في دُنيا الله جَلَّوَعَلَا بأنْ تعيش بِهذا العلم موحِّدًا لله جَلَّوَعَلَا، نافِرًا عن الشِّرك وأَهلِه، فإنَّك بذلك تكون قد نَجَوْتَ بنَفسِك دنيا وآخِرَة.

ومما يُستأنَس به في هذا الباب: ما رُوي عن عالمٍ من العُلَماء أنه كان يدرِّس لطُلَّابه التَّوحيد، ويَفرُغ من كتاب فيَبدأ في كتابٍ آخَرَ عن التَّوحيد، فأَهداهُ أحد طلابه هديَّة، وكانت «بَبَّغَاءَ»، فقَبِله العالِمُ علىٰ مَضَضٍ ووَضَعه في بيته، ومرَّت الأيام وكان العالِمُ يُكثِر من القِراءَة عن التَّوحيد والكلام عنه، فتعلَّم البَبَّغَاءُ أن يقول: «لا إله إلا الله» فكان لا يملُّ عن تكرار كَلِمَة التوحيد، فبدأ الشيخ يتعلَّق به بسبب كثرة تَكرارِه لكَلِمة التَّوحيد «لا إله إلا الله»، وكان للشيخ قِطٌّ في البيت يَغار من البَبَّغاء، فلمَّا رأىٰ اهتمامَ الشَّيخ به هجم عليه وضَرَبه فأَرْدَاه، فظلَّ البَبَّغَاءُ يصرُخ حتَّىٰ مات.

فذهب الشيخ إلىٰ حلقة العلم يبكي، فسألوه ما يُبْكِيك يا شيخُ؟

قال: لقد مات البَبَّغاء.

فقالوا: لا تَبْكِ يا شَيخُ نُرسِل لك من الغد بَبَّغَاءً آخَرَ.

فقال لهم: لقد تعلَّق به قلبي لكَثرَة تكرارِه لكَلِمة التَّوحيد، والذي أبكي بسَبِبه علىٰ وجه الخُصوص، أنَّه علىٰ كَثرَة نُطقِه لكَلِمة التَّوحيد إلَّا أنَّه لمَّا ضَرَبه القِطُّ جلسْتُ بجِوارِه أقول له: قل: «لا إله إلا الله»، فلم يلتفت، وظلَّ يصرُخُ حتَّىٰ مات، وإنِّي لأَخْشىٰ أن نَصِير إلىٰ ما صار؛ إذ نَنطِق ليلَ نَهارَ بكَلِمة التَّوحيد دون إِعمالِها في قُلوبنا، ودون أن نحيا بِها، فما وَافَقَها أَقْبَلنا عليه وعملناه، وما خالَفَها أَدْبَرْنا عنه وتَرَكْناه.

ومعلومٌ أنَّ البَبَّغاء غيرُ مكلَّف بنُطق كَلِمة التَّوحيد قبل موته، ولَرُبَّما يكون قد نَطَقها بلُغَته (لُغَةِ الطُّيور) ولم يفهَمْها العالِمُ منه، غَير أن الشَّاهد من القِصَّة هي العِبْرة والعِظَة وإِرشاد الطُّلَّاب بأن يعيشوا علىٰ التَّوحيد ليَمُوتوا عليه.

وقد مرت معنا قصة جَبَلَةَ بنِ الأَيهَم وما فيها من عِبْرة وعِظَة؛ إذ دَخل الإسلام لِيَرْفع مَكانَتَه ويَكُونَ به أعزَّ منه في الجاهِلِيَّة، فلمَّا وجد الإسلام يُساوِي بين البَشَر، وأنَّه لا فَرْقَ بين أَبْيَض ولا أَسْوَدَ إلَّا بالتَّقوَىٰ، فلم يَجِدْ بُغْيَتَه من الإِسلام ففرَّ متنصِّرًا مرتدًّا عن دين الله جَلَّ وَعَلَا.

وإذن؛ لكي تُثَبِّتَ قَدَمَك علىٰ الإسلام وفيه، فعليك أن تُقبِلَ بكُلِّيَّتِك تتعلَّم دينَ ربِّك جَلَّ وَعَلَا.

٢- ألا يوفَّق العبدُ إلى عالِمٍ يُرشِده ويَهدِيه.

ومع ما مرَّ من ذِكر العِلم والتعلُّم؛ فإنَّ العُلَماء هم الذين وَرِثوا العلم؛ إذ هم وَرَثة الأَنبياءِ، لا يأتون به مِن عند ذَواتِهم، وإنما يستَخرِجونه من الكتاب والسُّنَّة؛ فإذا ما جاءوا به بدليلِه من الكتاب وصَحيحِ السُّنَّة قُبِلَ منهم، وإلَّا كان مردودًا عليهم.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

وإذنْ؛ فعلينا أن نسأل العُلَماءَ لا الجُهَلاءَ، ولكن هل كلامُهم مصدَّق وإن خالف الدليل؟

لا؛ قال تعالىٰ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾

[النحل: ٤٣، ٤٤].

أي: نَسأَلُهم ليُجِيبُونا بما تعلَّموه من الأدِلَّة والبَراهين «البينات» الوارِدَة في الكُتُب النَّازِلة من السَّماء من عند الله جَلَّوَعَلَا «الزُّبُر»، بالبيِّنات والزُّبُر.

وما أكثَرَ ما يَضِلُّ ضالٌّ من المُسلِمين بسبب تلَقِّيه شُبُهاتٍ عن الإسلام

العظيم! فيسألُ مَن لا يَعلم فيؤكِّد له ما قرأه من الضَّلال والجهل، فيكفُرُ بدين الله جَلَّوَعَلَا، ويكون هذا الجاهل الذي أفتاه بجهلٍ هو سببَ ضَلالِه وكُفرِه.

وإذنْ؛ فعليك أن تسأل ربَّك جَلَّوَعَلَا أن يُرشِدَك إلىٰ أهل العلم وطُلَّابه الذين هم بحق مَحِلٌّ للعلم وأهلٌ للفتوىٰ، ثم عليك ألَّا تكتفي بسؤالِ مَن لم يُجِب لك عن الشُّبهة جوابًا كافيًا، قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم-: «**أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا! فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ**»(١).

وإذنْ؛ فلكلِّ سؤال جوابٌ في دين الله جَلَّوَعَلَا، عَلِمه مَن عَلِمه وجَهِله مَن جَهِله، كما أنَّه لكلِّ داءٍ دواءٌ في دنيا الله جَلَّوَعَلَا، عَلِمه مَن عَلِمه وجَهِله من جَهِله.

فعلىٰ الإنسان أن يبحث عن عالمٍ يدُلُّه علىٰ الحق ويُرشِدُه إلىٰ الخير، كما يبحث عن طبيبٍ حاذِقٍ يدُلُّه علىٰ دوائه الذي يَشفِيه الله به من مرضِ بَدَنه، فإذا حَرَص الإنسانُ علىٰ سلامة مُعتَقَدِه كما يَحرِص علىٰ سلامة بدنه فإنَّه لن يضُرَّه نُدْرَة العُلَماء وطُلَّاب العلم؛ إذ سيبذُلُ من الجَهدِ ما يَصِل به إلىٰ مُبتَغاه.

---

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٤٣٦٣).

وكذلك عليه أثناءَ ذلك وقَبلَه وبَعدَه أن يتضرَّع إلىٰ ربِّه جَلَّ وَعَلَا أن يهدِيَه إلىٰ ما اختُلِف فيه من الحقِّ بإذنِه، فهو سبحانه الهادي إلىٰ سواءِ الصِّراط المُستَقِيم، وهو سبحانه الموفِّق والمُستَعان.

٣- فتنة الشبهات.

وهي أن يُفتَن المرء -عِياذًا بالله- بمُغالطاتٍ ينشرُها أهلُ الكُفرِ أو أهل البدع، وهي فتنة مُشتَرَكة، تأتِي مَن انتَكَس عن الدِّين ومَن انتكَس عن السُّنَّة أيضًا، فهي مُشتَركة في هذا الفصل وفي الفصل الذي يلي «أسباب الانتِكاسِ عن السُّنَّة والوِقايَة منه».

قال ابنُ القيِّم رحمة الله عليه:

«فتنة الشُّبُهات من ضَعفِ البَصِيرة وقِلَّة العلم، ولاسيَّما إذا اقترَن بذلك فسادُ القصدِ وحُصولُ الهوىٰ، فهُنالِك الفِتنَة العُظمىٰ والمُصيبَة الكُبْرىٰ؛ فقُلْ ما شِئْتَ في ضلالِ سيئِ القصد الحاكِمِ عليه الهَوىٰ لا الهُدىٰ، مع ضَعفِ بَصِيرَته وقِلَّة علمه بما بعث الله به رَسُولَه؛ فهو من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوىٰ يضل عن سبيل الله فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الفتنة مآلُها إلىٰ الكُفر والنِّفاق، وهي فتنة المُنافِقِين، وفتنة أهل البدع علىٰ حسب مراتِبِ بِدَعهم، فجَمِيعُهم إنَّما ابتدعوا من فتنة الشُّبُهات التي اشتبَه عليهم فيها الحق بالباطِلِ والهدىٰ بالضَّلال.

ولا يُنجي من هذه الفتنة إلَّا تجرِيدُ اتِّباع الرَّسول وتَحكيمُه في دِقِّ الدين وجِلِّه، ظاهِرِه وباطِنِه، عقائِدِه وأَعمالِه، حَقائِقِه وشَرائِعِه؛ فيتلقَّىٰ عنه حَقائِقَ الإيمان وشَرائِعَ الإسلامِ، وما يُثْبِتُه لله من الصِّفات والأَفعالِ والأَسماءِ، وما يَنفِيه عنه كما يتلقَّىٰ عنه وُجوبَ الصَّلَوات وأَوقاتِها وأَعدادِها، ومَقادِير نُصُبِ الزَّكاة ومُستَحِقِّيها، ووُجوب الوُضوءِ والغُسلِ»(١).

وعِلاجُ هذه الشُّبُهات العَقَدِيَّة الدِّينِيَّة التي يَجتَال بِها الشَّيطانُ عِبادَ الرَّحمنِ عن دينِهم فيما يلي:

أ- الابتعاد عن سماع الشبهات.

أن يبتَعِد عن الشُّبُهات وأَهلِها، وفي هذه الأَيَّام قد انتَشَرت الشُّبُهات وأصبَحَت علىٰ طَرَف البَنانِ في الهَواتِفِ والحَواسِيب والتِّلفاز، وفي كلِّ يوم يخرُجُ زِنديقٌ ينقُل

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (٢/ ١٦٥).

كلامَ المُستَشرِقين، ويا لَيْتَهُ يَعْزُوه لهم ويُخبِر بأنَّه ينقُلُ عنهم لِيَعرِف المُسلِمون عمَّن جاءَت هذه الشُّبُهات وما المراد منها! ولكِنَّه يَسرِق كلامَ المُستَشرِقين والزَّنادِقَة وينسُبُه لنَفسِه.

وقد ردَّ العُلَماء علىٰ شُبُهات هَؤُلاء وفنَّدوها تفنيدًا، ولكنْ في إعلامٍ ينبغي أن يُدافِع عن الإِسلام وثَوابِتِه، ولا يَعرِض شُبُهات الزَّنادِقة والمَلاحِدَة، ولكنَّه لا يفعل، بل تجد هذا الإِعلامَ لا يَنزِل دَرْكَة فيَصِير حيادِيًّا -غير مدافِعٍ عن الإسلام- فيَعرِض الشُّبُهات ويَعرِض الرَّدَّ عليها من المُتخصِّصين، بل ينزل إلىٰ أسفلِ سافِلين، فيَعرِض الشُّبُهات ويأتي بجُهلاءَ في الدِّين غَيرِ مَعرُوفين بالعلم ليُجِيبُوا، فيَفشَلُوا فتَثبُتَ الشُّبهَة في قلوب المُشاهِدِين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

قال العلَّامة السِّعدِي في تَفسِيرِه لهذه الآيَة:

«أي: وقد بيَّن الله لكم فيما أنزل علَيكُم حُكمَه الشَّرعيَّ عند حُضور مجالِسِ الكُفرِ والمعاصي ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ [النساء: ١٤٠] أي: يُستَهان بِها، وذلك أنَّ الواجِبَ علىٰ كلِّ مكلَّفٍ في آياتِ الله الإِيمانُ بِها وتَعظِيمُها

وإِجلالُها وتَفخِيمُها، وهذا المَقصُود بإِنزَالِها، وهو الذي خَلَق الله الخَلْق لأَجْلِه، فضدُّ الإيمان الكُفر بِها، وضدُّ تَعظِيمها الاستِهزاءُ بها واحتِقارُها، ويَدخُل في ذلك مُجادَلة الكفَّار والمُنافِقين لإِبطالِ آيات الله ونَصْر كُفرِهم.

وكذلك المُبتَدِعون علىٰ اختِلافِ أنواعهم، فإنَّ احتِجاجَهم علىٰ باطِلِهم يتضمَّن الِاستِهانة بآيات الله؛ لأنَّها لا تدلُّ إلَّا علىٰ حقٍّ، ولا تستَلزِمُ إلَّا صدقًا، بل وكذلك يدخل فيه حُضور مَجالِس المعاصي والفُسوق التي يُستهان فيها بأَوامِر الله ونَواهِيه، وتُقتَحَم حُدوده التي حدَّها لعبادِهِ، ومُنتهىٰ هذا النَّهي عن القُعود معهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٦٨] أي: غير الكُفر بآيات الله والاستِهزاءِ بها.

﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا﴾ أي: إن قَعَدْتُم معهم في الحال المذكورة ﴿مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ لأنَّكم رَضِيتم بكُفرِهم واستِهزائِهم، والرَّاضي بالمَعصِية كالفاعلِ لها، والحاصِلُ أنَّ مَن حَضَر مَجلِسًا يُعصىٰ الله به، فإنَّه يتعيَّن عليه الإنكارُ عليهم مع القُدرَة، أو القِيام مع عَدَمها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: ١٤٠] كما اجتَمَعوا علىٰ الكُفرِ والمُوالاة، ولا يَنفَع المُنافِقين مجرَّدُ كَونِهم في الظَّاهر مع المُؤمِنين». اهـ.

فإذا ما ابتَعَد المُسلِمُ عن الشُّبُهات حتَّىٰ يتعلَّم العلمَ الشَّرعيَّ ويصيرَ عالِمًا بالشَّريعة أصولًا وفروعًا؛ فإذا ما أتقن العلم الشَّرعيَّ وأراد أن يردَّ علىٰ ما انتشر بين الناس من شُبُهات المُنافِقين والكافرين وأهل البدع فإنه حالَتَئِذٍ لا يضرُّه النَّظَر فيما يُثار ويُقال، ولكن عليه أن يُتقِن العلم ويُجاز من العُلَماء في الرَّدِّ علىٰ شُبُهات أهل الشُّبُهات، فالعُلَماء أدرىٰ بحاله وبمُستَواه العِلميِّ وبتأهُّلِه للرَّدِّ علىٰ الشُّبُهات من عَدَمِه.

وأمَّا أن يَجلِس ليَسْمَع الشُّبُهات تدخل في قلبه ثم يبحث بعدُ عمَّن يردُّ عليها ويُخرِجها من قلبه؛ فإنَّه كمَن يدخل في مدينة قد انتَشَر فيها الطَّاعون وهو يعلم قبل أن يَدخُل أنه لو دخل أُصِيب بالطَّاعون ولابدَّ، ومع ذلك يدخل ليُصابَ، ثم يخرُج باكيًا باحثًا عن الطبيب وهَيهَاتَ! إلَّا أن يشاءَ ربِّي شيئًا.

ب- التجرد من الهوىٰ.

إذا ما خَالف الإنسانُ تعالِيمَ ربِّه جَلَّوَعَلَا بالبُعد عن الشُّبهات وأَهلها فجَلَس وسَمِع فوَقَعت الشُّبهة في قلبه وشكَّ في دينه؛ فعليه أولًا أن يتجرَّد من هواه وتوجُّهِه الحادِثِ بعد الشُّبهَة.

ج- العُلمَاء هُم المَخرَج من المِحنَة.

وأن يذهب إلىٰ عالمٍ يدلُّه علىٰ الجواب الكافِي علىٰ شُبُهاتِه، فيَبحَث

عمَّن هو مؤهَّلٌ للإفتاء في دين الله بحقٍّ، مع عدم اغترِارِه بالشَّهادات والألَقاب، ولكن فلْيَبْحَثْ عن عالِمٍ قد بلغ من العلم مبلغًا كبيرًا، قد وُصف من أهل العلم والدِّيانة بأنَّه من أهل العلم الأَثباتِ، وبأنَّه ذو دين، وتجرُّدٍ لله جَلَّوَعَلَا.

د- حُسْن السُّؤال نِصفُ العلم.

أن يُحسِن عَرْضَ كلِّ ما يدور بقَلبِه من شُبهَة وألَّا يُخفِي منه شيئًا؛ فإن حُسنَ السُّؤال نِصفُ العلم، ثم ليستَمِع لجَوابِه على الشُّبُهات بأُذُنِ قلبه، سائلًا المولىٰ جَلَّوَعَلَا أن يَهدِيَه إلىٰ الحقِّ ويُنجِيه من الباطِلِ وأَهلِه.

هـ- التضرع إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا.

أن يُكثِر من الدُّعاء والتَّضرُّع لله جَلَّوَعَلَا، ولْيُكْثِر من العِبادَات من صلاةٍ، وصيامٍ، ودعاءٍ، وذِكْر، في وَقتِ مِحنَتِه بشُبهَتِه التي أُلقِيَت في قَلبِه، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٨، ٦٩].

فليُجاهِدِ المَرءُ في الله، ليَهدِيَه اللهُ سَبِيلَه المُستقيمَ، وليَجعَله الله علىٰ الحقِّ المُبين مع عِبادِه المُؤمنين المُحسنين، بعيدًا عن سبيل المَغضُوب عليهم والضَّالِّين.

٤ - فتنة الشهوات.

وقد يتعجَّب البعضُ من إِيراد هذا السَّبب في الانتِكاس عن دين الله جَلَّوَعَلَا، فمَالِ الفَواحِشِ والمُنكَرات بالخُروج من الإسلام ردَّةً؟!

وأقول: لقد تابعْتُ كثيرًا من المُتَنصِّرين لمدَّة تزيد عن خمس سنوات، وكانت النتيجة أنَّ أكثرَهُم يخرُج من الإسلام إلىٰ النَّصرانِيَّة -لاسيما في مصر- بسبب ما يُعرَض عليه من مالٍ، أو انغِماسِه في شهوةِ نساءٍ إن كان ذكرًا، أو عِشْقِ رجلٍ إن كانت امرأة، والأَمثِلَة علىٰ ذلك كثيرة يعرفها مَن يتابِعُ هذا الأَمرَ مُتابعَةً جيِّدة.

وأمَّا الإِلحادُ فحدِّثْ عن إباحة كلِّ شيءٍ ولا حَرَج؛ فالمُلحِد لا يُحرِّم زنًا ولا شذوذًا ولا سَرِقة ولا شيئًا، بل كلُّ ما يتاح لك فِعْلُه فلْتَفْعَلْه، فإِنَّه لن يُعاقِبَك أحدٌ! لن تُبعَثَ لِتُحاسَبَ علىٰ شيءٍ! كذا يعتَقِدون لجَهْلِهم وضَلالِهم.

وقد أورد ابنُ القيِّم -رحمة الله عليه- قصَّةً فقال:

«وَيُرْوَىٰ: أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ يَلْزَمُ مَسْجِدًا لِلْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ، وَعَلَيْهِ بَهَاءُ الطَّاعَةِ وَأَنْوَارُ الْعِبَادَةِ، فَرَقِيَ يَوْمًا الْمَنَارَةَ عَلَىٰ عَادَتِهِ لِلْأَذَانِ، وَكَانَ تَحْتَ الْمَنَارَةِ دَارٌ لِنَصْرَانِيٍّ، فَاطَّلَعَ فِيهَا، فَرَأَىٰ ابْنَةَ صَاحِبِ الدَّارِ فَافْتُتِنَ بِهَا، فَتَرَكَ الْأَذَانَ، وَنَزَلَ إِلَيْهَا، وَدَخَلَ الدَّارَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُكِ،

فَقَالَتْ: لِمَاذَا؟ قَالَ: قَدْ سَبَيْتِ لُبِّي، وَأَخَذْتِ بِمَجَامِعِ قَلْبِي.

قَالَتْ: لَا أُجِيبُكَ إِلَىٰ رِيبَةٍ أَبَدًا.

قَالَ: أَتَزَوَّجُكِ؟

قَالَتْ: أَنْتَ مُسْلِمٌ وَأَنَا نَصْرَانِيَّةٌ، وَأَبِي لَا يُزَوِّجُنِي مِنْكَ

قَالَ: أَتَنَصَّرُ

قَالَتْ: إِنْ فَعَلْتَ أَفْعَلُ

فَتَنَصَّرَ الرَّجُلُ لِيَتَزَوَّجَهَا، وَأَقَامَ مَعَهُمْ فِي الدَّارِ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، رَقِيَ إِلَىٰ سَطْحٍ كَانَ فِي الدَّارِ فَسَقَطَ مِنْهُ فَمَاتَ، فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا، وَفَاتَهُ دِينُهُ»[١].

فإذا كان ذلك كذلك فعِلاجُ ما مرَّ أن يتعلَّمَ الإنسانُ صِفاتِ ربِّه جَلَّوَعَلَا وأَفعالَه، وفَضلَه عليه، وما أعطاه إيَّاه وأكرَمَه به من غيرِ ما سببٍ منه ولا جُهدٍ ولا شَفيعٍ ولا شيءٍ، فإذا ما عَرَف فَضْلَ ربِّه عليه فإنه يُحِبُّه، يحبُّه لذَاتِه جَلَّوَعَلَا، ويحبُّه لفَضلِه عليه سبحانه، ويحبُّه لِمَا يَصدُر منه هو من ذُنوبٍ وآثامٍ، والربُّ جَلَّوَعَلَا يصبِر عليه ويُمهِله ويَحلُم عليه ليتوبَ ويعودَ إليه فيُجازِيَه بتوبَتِه الجنَّةَ وزيادة؛ فهو سبحانه كما قال جَلَّوَعَلَا عن نَفسِه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» صفحة (١٦٧).

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النساء: ٢٧] فهو يحبُّ لعبادِه الخيرَ.

قال ابن القيِّم رحمة الله عليه:

«إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ فِي الْقَلْبِ حُبُّ الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَىٰ وَعِشْقُ الصُّوَرِ أَبَدًا، بَلْ هُمَا ضِدَّانِ لَا يَتَلَاقَيَانِ، بَلْ لابد أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ.

فَمَنْ كَانَتْ قُوَّةُ حُبِّهِ كُلُّهَا لِلْمَحْبُوبِ الْأَعْلَىٰ، الَّذِي مَحَبَّةُ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ، وَعَذَابٌ عَلَىٰ صَاحِبِهَا، صَرَفَهُ ذَلِكَ عَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ، وَإِنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُحِبَّهُ إِلَّا لِأَجْلِهِ، أَوْ لِكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ، أَوْ قَاطِعًا لَهُ عَمَّا يُضَادُّ مَحَبَّتَهُ وَيُنْقِصُهَا، وَالْمَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ تَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْمَحْبُوبِ، وَأَلَّا يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي مَحَبَّتِهِ.

وَإِذَا كَانَ الْمَحْبُوبُ مِنَ الْخَلْقِ يَأْنَفُ وَيَغَارُ أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ مَحَبَّةُ غَيْرِهِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَيَمْقُتُهُ لِذَلِكَ، وَيُبْعِدُهُ لَا يُحْظِيهِ بِقُرْبِهِ، وَيَعُدُّهُ كَاذِبًا فِي دَعْوَىٰ مَحَبَّتِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِصَرْفِ كُلِّ قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ بِالْحَبِيبِ الْأَعْلَىٰ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْمَحَبَّةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لِغَيْرِهِ فَهِيَ عَذَابٌ عَلَىٰ صَاحِبِهَا وَوَبَالٌ؟ وَلِهَذَا لَا يَغْفِرُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، وَيَغْفِرَ مَا دُونَ

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

فَمَحَبَّةُ الصُّوَرِ تُفَوِّتُ مَحَبَّةَ مَا هُوَ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ، بَلْ تُفَوِّتُ مَحَبَّةَ مَا لَيْسَ لَهُ صَلَاحٌ وَلَا نَعِيمٌ وَلَا حَيَاةٌ نَافِعَةٌ إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ وَحْدَهُ، فَلْيَخْتَرْ إِحْدَىٰ الْمَحَبَّتَيْنِ، فَإِنَّهُمَا لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الْقَلْبِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ مِنْهُ، بَلْ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ وَذِكْرِهِ وَالشَّوْقِ إِلَىٰ لِقَائِهِ ابْتَلَاهُ بِمَحَبَّةِ غَيْرِهِ؛ فَيُعَذِّبُهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ وَفِي الْآخِرَةِ، فَإِمَّا أَنْ يُعَذِّبَهُ بِمَحَبَّةِ الْأَوْثَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الصُّلْبَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الْمُرْدَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ النِّسْوَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الْعُشَرَاءِ وَالْإِخْوَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ مَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِي غَايَةِ الْحَقَارَةِ وَالْهَوَانِ، فَالْإِنْسَانُ عَبْدُ مَحْبُوبِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، كَمَا قِيلَ:

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوَىٰ مَنْ تَصْطَفِي

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَهُهُ مَالِكَهُ وَمَوْلَاهُ، كَانَ إِلَهُهُ هَوَاهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ [الجاثية: ٢٣]»(١).

* * *

(١) «الجواب الكافي» صفحة (١٨١ وما بعدها).

فصلٌ في أسبابِ الانتكاس عن السُّنَّة
والوِقايَة منه

الانتِكاسُ عن السُّنَّة إلىٰ البدعة من أخطَرِ أنواع الانتِكاسِ؛ لأنَّ المُبتَدِع يظنُّ نَفسَه علىٰ خيرٍ؛ فهو يتعبَّدُ إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا بما لم ينزِّلْه سبحانه في كتابه أو علىٰ لسان نبيِّه ﷺ، فهو علىٰ خطرٍ عظيمٍ؛ إذ كلَّما اجتَهَد في بِدعَتِه ازداد بُعدًا عن الصِّراط المُستَقيم، فتَجِدُ الخَوارِجَ -علىٰ سبيل المثال- يقتُلون المُسلِمين ويَسفِكُون دِماءَهم، ويُفتِّتون بلادَهُم، وهم بذلك يتقرَّبون إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويظنُّون أنَّهم علىٰ خير وهَيْهَاتَ!

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وكذلك الشِّيعة الرَّوافِض، وهم من أشرِّ أهل البدع وأَخطَرِهم علىٰ الإسلام والمُسلِمين؛ انظر كيف يُحارِبون الدِّين، وقد سمَّوا دولتهم بـ«الجمهورية الإسلامية» -زعموا-، وإنَّما هم حربٌ علىٰ الإسلام وأَهلِه، وللِاستِزادَة عن هُؤلاءِ الرَّوافضِ راجِعْ كتاب «تحذِير وإِنذَار من خَطَر الشِّيعة

الأشرار»، وهو من إصدارات «**مركز تبصير**».

والمقصود: أنَّ المُبتَدع يَنحَرِف انحِرافًا يَجعَلُه كلَّما نَشِط وأراد أن يبذُلَ لدين الله جَلَّوَعَلَا من جُهدِه ووَقتِه وماله ونَفسِه؛ فإنَّه في حال نشاطه للدِّين يكون أخطَرَ علىٰ نَفسِه وعلىٰ دينه ودين مَن حوله منه حالَ سُكونِه وسُكوتِه.

وقد تحوَّل كثير من النَّاس عن السُّنَّة إلىٰ البدعة، لاسيَّما في هذا الزمان المَنكُوب بأَهلِه المُمتَلِئ بالفِتَن والمِحَن، فبعدما كانوا يقولون: «إنِ استَطَعْتَ ألَّا تَحُكَّ رأسَكَ بظُفُرك إلَّا بأثرٍ وسُنَّة فافعَلْ»، أصبحوا علىٰ منهج المُتفَلسِفَة العقلانيِّين، منهج «أرأيت! أرأيت!»؛ فتَجَدِهُم الآن يَضرِبون لكلام الله وكلام رسوله ﷺ الأمثالَ.

فمِن أسبابِ انتِكاس مَن انتَكَس عن السُّنَّة إلى البدعة ما يلي:

١- التعرُّض للفتن.

قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**» قالوا: يا رَسُول الله، وكيف يُذِلُّ نَفسَه؟ قال: «**يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ**»[١].

وإذنْ؛ فينبغي للإنسان أن يعرف قَدْرَه، لاسيَّما في العلم الشَّرعيِّ والفُتْيا،

(١) صححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٢٥٤).

فلا يَجمُل بالمَرء أن يتكلَّم فيما لا يعلم، وأن يتصدَّر في مسائِلَ لو عُرِضت علىٰ عُمَر بنِ الخطاب لَجَمع لها أهلَ بدرٍ.

ومن ذلك: الكلام في الله جَلَّوَعَلَا في أسمائِه وصِفاتِه، وكذا الكلام في السِّياسة الشَّرعِيَّة، والقَدَر... وما أشبَهَ من هذه الأُمورِ التي هَلَك فيها مَن هَلَك وضلَّ مَن ضلَّ.

وقد جاءت فتنة الثَّوْرَات والعمل السِّياسيِّ والحِزبيِّ، جاءت إلىٰ العالم الإسلامي فوَقَع فيها الكثيرُ من النَّاس ولم يَعْتَزْلْها إلَّا القليلُ ممَّن عَرَف قدر نَفسِه وقدْر الفِتنَة التي تجتاحُ الكبيرَ والصغيرَ، ولا تفرِّق بين أحدٍ ممَّن استَشْرَف لها، وقد سقط فيها أقوامٌ ممَّن يُشار إليهم بالبَنان بأنَّهُم هم أهل العلم والدين؛ إذ ظنُّوا في أَنفُسِهم القُدرَة علىٰ التَّصَدِّي لمِثلِ هذه الأَحداثِ، والقُدْرة علىٰ تَحلِيلها تَحلِيلًا صحيحًا، ولم يلتزموا فيها بمَنهَج السَّلَف، فأَضَلَّتْهم عُقولُهم وغرَّتْهم الفِتنُ، فخَرَجوا منها وقد بَدَّلوا وغَيَّروا وقالوا ما لم يكونوا يقولونه قبلَها، فلمَّا انجَلَت فإذا بِهم قد أحدثوا في الدِّين ما كانوا يُنكِرونه قبلُ.

وغير ذلك من الفِتَن؛ كفِتنَة التجرُّؤِ علىٰ الكلام في صفات الله وأسمائه بلا علمٍ، وفتنة الكلام في القَدَر جبْرًا ممَّا يؤدي إلىٰ الإلحاد والكفر عياذًا بالله جَلَّوَعَلَا، وكذا الكلام في الإلحاد ووُجودِ الخالق ومُتابَعَة الجُهَلاء من عُبَّاد

«دَارْوِين» الذين يَصبُغون العلم بصِبْغَةٍ إلحادِيَّة كاذِبَة.

وإذنْ؛ فعلىٰ المُسلِم أن يَعزِل نَفسَه ويبتَعِدَ عن الفِتَن وعن أهلها، وألَّا يُعَرِّض نَفسَه من الفِتَن ما لا يُطِيق.

٢- مُجالَسَة أهلِ البدع.

نادرًا ما تَجِد مُبتَدِعًا -سواء كان خارجيًّا أو مُرجِئيًّا أو قدرِيًّا أو جبْرِيًّا أو أشعرِيًّا أو غير ذلك- لم يأخُذ بِدعَته عن أحدٍ ممَّن يحمل نفس بِدعَتِه هو، فالخارِجيُّ لابُدَّ وقد جالَسَ الخَوارِجَ فعلَّموه مَذهَبَهم الضَّالَّ، وكذا المُرجئُ قد جالس مَن هو علىٰ مَذهَبِه الضَّالِّ فحمل منه مَذهَب الإرجاءَ بما يسمُّونه هم أدِلَّتَه، وهي في الحقيقة شُبُهات علىٰ السُّنَّة ما أنزل الله بِها من سُلطانٍ.

قال الشَّيخُ العلَّامة بكر أبو زيد في «حِلْيَة طَالِب العِلْم»:

«التلقِّي عن المُبتَدِع:

احذَرْ «أبا الجَهلِ» المُبتَدِعَ، الذي مسَّه زيغُ العَقِيدَة، وغَشِيَتْه سُحُب الخُرَافَة، يُحَكِّم الهوىٰ ويسمِّيه العقلَ، ويعدِلُ عن النَّصِّ، وهل العقل إلَّا في النَّصِّ؟! ويستَمسِك بالضَّعيف ويَبعُد عن الصَّحيح، ويقال لهم أيضًا: «أهل الشبهات»[1]،

(١) «الجامع» (١/ ١٣٧).

و«أهل الأهواء»؛ ولذا كان ابن المُبارَك[1] -رحمه الله تعالىٰ- يسمِّي المُبتَدِعَة: «الأَصاغِرَ».

وقال الذهبي رحمه الله تعالىٰ[2]: «إذا رأيتَ المُتكلِّم المُبتَدِع يقول: دَعْنا من الكتاب والأحاديث، وهاتِ (العقلَ)، فاعْلَمْ أنَّه أبو جهل، وإذا رأيْتَ السَّالِك التَّوحيدِيَّ يقول: دَعْنا من النَّقلِ ومن العَقلِ، وهاتِ الذَّوقَ والوَجْدَ، فاعْلَمْ أنه إبلِيسُ قد ظَهَر بصُورة بَشَر، أو قد حلَّ فيه، إن جبُنْتَ منه فاهْرُبْ، وإلَّا، فاصْرَعْه، وابْرُكْ علىٰ صَدْرِه، واقْرَأْ عليه آيَةَ الكُرْسِيِّ، واخنُقْهُ» اهـ.

وقال أيضًا رحمه الله تعالىٰ[3]: «وقرأْتُ بخطِّ الشَّيخ الموفَّق قال: سمِعْنا دَرْسَه -أي: ابنِ أبىٰ عَصْرُونَ- مع أخي أبي عُمَر وانقطَعْنا، فسَمِعْتُ أخي يقول: دخلْتُ عليه بعدُ، فقال: لِمَ انقطَعْتم عني؟ قلت: إنَّ أناسًا يقولون: إنَّك أشعَرِيٌّ، فقال: والله مَا أنا أَشعَرِيٌّ. هذا معنىٰ الحكاية» اهـ.

وعن مالك -رحمه الله تعالىٰ- قال[4]: «لا يُؤخَذ العِلمُ عن أَربَعة: سَفيهٍ

---

(١) في «الزهد» (٦١) له، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٦٩٥).

(٢) «السير» (٤/ ٤٧٢).

(٣) «السير» (٢١/ ١٢٩).

(٤) كما في «السير» (٨/ ٦١).

يُعلِن السَّفَه وإن كان أَرْوَىٰ النَّاس، وصاحِبِ بِدعَة يدعو إلىٰ هَواهُ، ومَن يكذِبُ في حديث النَّاس وإن كنتُ لا أتَّهِمُه في الحديث، وصالحٍ عابدٍ فاضلٍ إذا كان لا يحفَظُ ما يحدِّث به».

فيا أيُّها الطَّالب، إذا كُنتَ في السَّعة والاختِيارِ؛ فلا تأخُذْ عن مُبتَدِع: رافضِيٍّ، أو خارجِيٍّ، أو مرجِئٍ، أو قَدَرِيٍّ، أو قُبورِيٍّ... وهكذا؛ فإنَّك لن تبلُغ مَبلَغ الرِّجال -صحيحَ العَقدِ في الدِّين، مَتِينَ الاتِّصال بالله، صَحيحَ النَّظر، تقفُو الأَثَر- إلَّا بِهَجْر المُبتَدِعة وبِدَعِهم.

وكتب السِّيَر والاعتِصامِ بالسُّنَّة حافِلَة بإِجهازِ أهلِ السُّنَّة علىٰ البدعة، ومُنابَذَة المُبتَدِعة، والابتِعاد عنهم، كما يبتَعِدُ السَّليم عن الأَجْرَب المَريضِ، ولهم قصَصٌ وواقِعِيَّات يَطُول شَرْحُها[1]، لكن يَطِيبُ لي الإِشارَةُ إلىٰ رءُوس المقيَّدات فيها:

فقد كان السَّلَف -رَحِمَهم الله تعالىٰ- يحتَسِبون الاستِخفَافَ بِهِم، وتَحقِيرِهم ورَفْضِ المُبتَدِع وبِدعَتِه، ويحذِّرون من مُخالَطَتِهم، ومُشاورَتِهم، ومُؤَاكَلَتِهم، فلا تتوارَىٰ نارُ سنِّيٍّ ومُبتَدِع [يعني: لا يجالِسُ السُّنِّيُّ المُبتَدِعَ أبدًا ولا يَجتَمِعان].

---

(١) وفي رسالة «هجر المبتدع» لراقمه أصول مهمة في هذه المسألة.

وكان من السَّلف من لا يصلي علىٰ جَنازة مُبتَدِع، فيَنصَرِف، وقد شُوهِد من العلَّامة الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم (م سنة ١٣٨٩ هـ) -رحمه الله تعالىٰ- انصرافَه عن الصَّلاة علىٰ مُبتَدِع.

وكان من السَّلف مَن يَنهَىٰ عن الصَّلاة خَلفَهم، وينهىٰ عن حِكايَة بِدَعهم؛ لأنَّ القُلوب ضعيفة، والشُّبَه خطَّافَة.

وكان سهلُ بنُ عبد الله التُسْتَرِيُّ لا يرىٰ إباحَة الأَكلِ من المَيتَة للمُبتَدِع عِندَ الِاضطِرَار؛ لأنَّه باغٍ؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾ [البقرة: ١٧٣] الآيَةَ، فهو باغٍ ببِدعَتِه[١].

وكانوا يَطرُدونَهُم من مَجالِسِهم، كما في قصَّة الإمام مالكٍ -رحمه الله تعالىٰ- مع مَن سأله عن كيفِيَّة الاستِوَاءِ، وفيه بعد جَوابِه المشهور: «أظنُّك صاحِبَ بِدعَة، وأمر به فأُخْرِجَ».

وأخبار السَّلَف مُتكاثِرَة في النَّفرَة من المُبتَدِعة وهَجْرِهم، حذرًا من شرِّهم، وتحجيمًا لانتِشارِ بِدَعِهم، وكسرًا لنُفوسِهم حتَّىٰ تَضعُف عن نشر البِدَع، ولأنَّ في معاشرة السُّنِّيِّ للمُبتَدِع تزكيةً له لدىٰ المُبتَدِئِ والعامِّيِّ - والعامِّيُّ:

---

(١) «الفتاوىٰ» (٢٨/ ٢١٨)، انظرها، فهو مهم.

مشتَقٌّ من العَمَىٰ، فهو بِيَدِ مَن يَقودُه غالبًا.

ونرىٰ في كتب المُصطَلَح، وآدابِ الطَّلَب، وأَحكامِ الجَرحِ والتَّعديلِ: الأَخبارَ في هذا[1].

فيا أيها الطالب، كُنْ سلفِيًّا علىٰ الجادَّة، واحذَرِ المُبتَدِعة أن يَفتِنُوك، فإنَّهُم يوظِّفون للاقتِناص والمُخاتَلَة سُبُلًا، يفتَعِلُون تَعبِيدَها بالكلام المَعسُول -وهو: (عسلٌ) مقلوبٌ- وهُطولِ الدَّمعَة، وحُسْنِ البِزَّة، والإغراءِ بالخَيالاتِ، والإِدهَاشِ بالكَرامَات، ولَحْسِ الأَيدِي، وتَقبِيلِ الأَكتافِ... وما وَراءَ ذلك إلا وَحَمُ البِدعَة، ورَهَجُ الفِتنَة، يَغرِسُها في فُؤادِك، ويعتَمِلُك في شِرَاكِه، فوالله لا يصلُح الأعمىٰ لِقِيادَة العُميانِ وإرشادِهم!

أما الأَخذُ عن عُلَماء السُّنَّة، فالْعَقِ العَسَلَ ولَا تَسَلْ!

وفَّقك الله لرُشْدِك، لتَنْهَلَ من ميراث النُّبوَّة صافِيًا، وإلَّا، فليَبْكِ علىٰ الدِّين مَن كان باكيًا.

---

(١) منها في: «الجامع للخطيب» (باب: تخير الشيوخ إذا تباينت أوصافهم) (١٠/ ١٢٧)، وفي كتاب: «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للسامرائي (ص٢١٥- ٢٥٥)، وهو مهم، وفي (التحول المذهبي) من «الإسفار» لراقمه أمثلة من آثار مخالطتهم.

وما ذكرتُه لك هو في حالَةِ السَّعَة والاختيار، أمَّا إن كنتَ في دِراسَة نِظامِيَّة لا خِيارَ لك، فاحذَرْ منه، مع الاستِعاذَة من شَرِّه، باليَقَظة من دَسائِسِه علىٰ حدِّ قَولِهم: «اجْنِ الثِّمارَ وأَلْقِ الخَشَبة في النَّار!»، ولا تتخَاذَلْ عن الطَّلب، فأخشىٰ أن يكون هذا من التَّولِّي يومَ الزَّحفِ، فمَا عَليك إلا أن تتبيَّنَ أَمْرَه وتتَّقِيَ شرَّه وتكشِفَ سِتْرَه.

ومن النُّتَف الطَّرِيفَة: أنَّ أبا عبدِ الرَّحمن المُقرِئ حدَّث عن مُرجِئٍ، فقيل له: لم تحُدِّث عن مُرجِئٍ؟ فقال: «أَبِيعُكُم اللَّحمَ بالعِظامِ»[1].

فالمُقرِئ -رحمه الله تعالىٰ- حدَّث بلا غَرَرٍ ولا جَهالَةٍ؛ إذ بيَّن فقال: «وكان مُرجِئًا».

وما سطرْتُه لك هنا هو من قَواعِد مُعتَقَدِك، عَقِيدَةِ أهل السُّنَّة والجماعة، ومنه ما في «العَقِيدَة السَّلفِيَّة» لشيخ الإسلام أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرَّحمن الصَّابونِيِّ (م سنة ٤٤٩هـ)، قال رحمه الله تعالىٰ[2]:

«ويُبغِضُون أهلَ البِدَع الذين أَحدَثُوا في الدِّين ما ليس منه، ولا يُحِبُّونَهم، ولا يَصحَبُونَهُم، ولا يسمعون كلامَهُم، ولا يُجالِسُونَهم، ولا يُجادِلُونَهم في

---

(١) الخطيب في «جامعه» (١/ ٢٢٤).

(٢) «العقيدة السلفية» لشيخ الإسلام الصابوني (ص١٠٠).

الدِّين، ولا يُناظِرونَهم، ويَرَون صَوْنَ آذانِهِم عن سَماع أَباطِيلِهم التي إذا مرَّت بالآذَان وقرَّت في القلوبِ ضرَّت، وجرَّت إليها من الوَساوِس والخَطَرات الفاسِدَة ما جرَّت، وفيه أنزل الله عَزَّوَجَلَّ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾» اهـ.

وعن سُليمَان بن يَسارٍ: «أنَّ رجلًا يُقال له: صَبِيغ، قَدِم المدينة، فجعل يسأل عن مُتشابِهِ القرآن؟ فأرسل إليه عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقد أعدَّ له عَراجِينَ النَّخلِ، فقال: مَن أنت؟ قال: أنا عَبدُ الله صَبِيغٌ، فأَخَذ عُرجُونًا من تلك العَراجِينِ، فضَرَبه حتَّىٰ دَمِيَ رأسُه، ثم تَرَكه حتَّىٰ بَرَأ، ثمَّ عاد، ثمَّ تَرَكه حتَّىٰ بَرَأ، فدُعِيَ به لِيَعُود، فقال: إنْ كُنْتَ تُريد قتلي فاقْتُلْني قتلًا جميلًا! فأَذِنَ له إلىٰ أَرضِه، وكَتَب إلىٰ أبي موسىٰ الأَشعَرِيِّ باليمن: لا يُجالِسْه أحدٌ من المُسلِمين. [رواه الدارمي]»[1].

فما قِيلَ ما قيل، وما وَقَع ما وَقَع ممَّا نقَلْتُه لك عن العلَّامة بكر أبو زيد؛ إلَّا خوفًا من أنْ تُفتَن القُلوبُ بشُبُهات أهل البِدَع فتَنتَكِسَ عن السُّنَّة إلىٰ البِدعَة عياذًا بالله ولِياذًا به سبحانه.

٣- حظُّ النَّفسِ وأَثَرُها في ردِّ الحقِّ والرُّكونِ إلىٰ الباطل.

وهذا مُشاهَد في كثيرٍ ممَّن انتكَس عن السُّنَّة إلىٰ البدعة، إذ تنشَأُ بِدعَتُه من

(١) انتهىٰ كلام الشيخ بحواشيه من كتاب «حلية طالب العلم» صفحة (٣٩ وما بعدها).

مُشكِلَة شخصِيَّة بينه وبين أحد المُنتَسِبين إلىٰ السُّنَّة، وربَّما كان المُنتَسِب إلىٰ السُّنَّة قد أخطأ في حقِّه أو بَدَرَت منه كلمة أو موقِفٌ أَغضَبَه، فتبدأ الخُصومَة ثم تتحوَّل من خُصومة شخصِيَّة إلىٰ خُصومَة مَنهَجِيَّة، ويتَّخِذُ هذا المُنتكِس منهجًا جديدًا نِكايَة في خَصمِه السُّنِّيِّ، ويجمع من الآيات والأحاديث وأقوالِ السَّلف ما يظنُّه مؤيِّدًا لبِدعَتِه، ثم يتَّخِذُ ذلك وَسِيلَة للنِّكايَة في خَصمِه وتَبدِيعه والتَّحذيرِ منه؛ لأنه -في زعمه- يخالِفُ هذه الآياتِ والأحاديثَ والأَقوالَ السلفِيَّةَ التي وظَّفها هو علىٰ غَيرِ ما نَزَلت له وفيه!

فانتَبِهْ -يا رَعَاكَ الله- لذَلِكَ! وافْصِلْ بين ما هو شرعيٌّ دينيٌّ وما هو شخصِيٌّ ذاتِيٌّ، فإذا ما اختلفْتَ مع إِخوانِكَ أو مع أَحَد طُلَّاب العلم فإِيَّاك أن تسعىٰ لتَبْرِير خِلَافِك باللُّجوء إلىٰ شَرْعَنَة الخِلافِ، وجَعْلِه خلافًا شرعيًّا، وتسعىٰ لتَبدِيعه لكي تَستَبِيحَ عِرْضَه -إذ لا غِيبَة لمُبتَدِعٍ!- فستَقَع حِينَها في مُخالَفة السُّنَّة لا مَحالَة، وسَتُدافِع عن الباطِل ولابدَّ، وحينها تكون قد سلَكْتَ طريق الانحِرافِ الذي يبدأُ بالانحِرافِ عن الطَّرِيقِ المُستَقِيم، ولو بانحرافٍ ظاهِرُه أنه يسيرٌ لا يضرُّ، إلَّا أنَّه خطيرٌ يَغُرُّ، فكلَّما أسرعْتَ فيه وتمادَيْتَ زاد ابتِعادُك عن الصِّراط المُستَقيم حتىٰ تُصبِحَ مُعاكِسًا له في الاتِّجاه، مُحاربًا لأَهلِه، نسأَلُ اللهَ السَّلامَة والعافِيَة.

٤ - الإِعجابُ بالرَّأي والتَّقدُّم بين يديْ أهلِ العلم.

قال الشَّهرَسْتَانِيُّ في «الملل والنحل»:

«دخل رجلٌ علىٰ الحَسَن البصرِيِّ فقال: يا إِمامَ الدِّين، لقد ظَهَرت في زَمانِنا جماعةٌ يكفِّرون أَصحابَ الكَبائِر، والكبيرة عِندهم كفرٌ يُخرَج به عن المِلَّة، وهم وعيدِيَّة الخَوارِج، وجماعةٌ يُرجِئُون أصحابَ الكبائِر، والكبيرَةُ عندهم لا تضرُّ مع الإيمان، بل العمل علىٰ مَذهَبِهم ليس ركنًا من الإيمان، فلا يضرُّ مع الإيمان مَعصِيَة كما لا ينفع مع الكُفرِ طاعة، وهم مُرجِئَة الأمَّة، فكيف تَحكُم لنا في ذلك اعتقادًا؟

ففَكَّر الحسَنُ في ذلك، وقبل أن يُجيبَ **قال واصِلُ بنُ عَطاءٍ**: أنا لا أقول: إنَّ صاحِبَ الكَبِيرَة مؤمِنٌ مُطلَقًا ولا كافِرٌ مطلقًا، بل هو في منزِلَة بين المَنزِلَتَين، لا مؤمنٌ ولا كافِرٌ، ثم قام واعتَزل إلىٰ أُسطُوانَة من أُسطُوانَات المَسجِد يقرِّر ما أجاب به علىٰ جماعَةٍ من أَصحابِ الحَسَن، فقال الحسن: اعْتَزَلَنا واصِلٌ! فسمِّي هو وأصحابُه المُعتَزِلَة»[(١)].

ومعلوم أن إحداث في الدين منزلة بين منزلة الإيمان والكفر بدعة يترتب

---

(١) «الملل والنحل» (١/ ٥٢).

عليها من اللوازم ما يفسد منهج من اعتقدها وهو مذهب المعتزلة .

ويُستفاد من قصَّة واصلِ بن عطاءٍ ما يلي:

أ- أنَّه كان يجلس لأئِمَّة الدِّين حتىٰ استَشْكَلت عليه مسألةٌ.

ب- لم يتوقَّفْ بين يديْ عالِمِه ليَسْمَع جَوابَه، بل انطَلَق مُتَكلِّمًا بكلامٍ من عنده يظنُّه حقًّا.

ج- أُعجِب برَأيِه المُخالِفِ للدِّين والشَّرعِ وانعَزَل عن العُلَماء، وبدأ يَنظُر لمَنهَجِه الجَديدِ، ويسعىٰ لإِيجادِ أدِلَّة علىٰ ما قال.

وفيها خُطورَة الشُّبُهات، فانظرْ كيف أضلَّه سؤالٌ جاء من رجلٍ ينقُل استِشكَال أهلِ البِدَع، أضلَّتْه الشُّبهَة وهو بين أهل السُّنَّة، فكيف لو جالَسَ أهلَ البدع وسَمِع كلامَهُم بشُبهاتِهِم؟!

د- وقد خالف في ذلك أيضًا منهجَ السَّلف «استدلَّ ثم اعتَقَدَ»؛ إذ إنَّه لما تسرَّع وأجاب، سعىٰ بعد ذلك لإثباتِ صِحَّة ما قاله والرَّدِّ علىٰ شَيخِه ومعلِّمه، فذهب يبحث عن الأدِلَّة.

والصَّواب: أنَّ الباحِثَ يجمع الأدِلَّة أولًا، ثم يَنظُر فيها بأَدوات الاجتهاد التي -يجب عليه أولًا أن يكون قد حصَّلها- ثم يَصِلُ في المُنتَهىٰ إلىٰ القَولِ الذي يراه

مُوافِقًا للأدِلَّة، لا أن يَخترِع قولًا ثمَّ يذهَبُ يتقمَّمُ له أدِلَّة من هنا ومن هُنالِك.

وقدِ اشتُهِرَ عنِ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولُه لتِلمِيذِه أبي الحسن المَيمُونِي: «إيَّاكَ أنْ تتكلَّمَ في مسألةٍ ليسَ لكَ فيها إمامٌ»(١).

« وهذهِ الكلمةُ الخالدةُ والنَّصيحةُ الغاليةُ من الإمامِ المبجَّلِ أحمدَ بنِ حنبلٍ تُعَدُّ نبراسًا لطالبِ العلمِ تعصِمُه من الشُّذوذِ عن سبيل المُؤمِنين، وتَهدِيه إلىٰ الحقِّ المُبينِ، وتَقِيه الانحِرافَ عن الصِّراط المستقيم.

ومعناها إجمالًا: عليك يا طالبَ النَّجاةِ باتباعِ سَبيلِ السَّلف الصَّالحين، واحذَرْ مُخالفةَ العُلَماء السَّابقين، فلا تخْرِقْ إجماعَهم فيما اتَّفقُوا عليه، ولا تُحْدِثْ قولًا ينقُضُ خِلافَهم فيما اختلفوا فيه، واجتَهِدْ في الاستِنبَاطِ من النُّصوصِ الشَّرعِيَّة وَفْقَ فَهمِهِم فيما لم يتكلَّموا فيه، مُعتَمِدًا علىٰ مَصادرِهم في التلقِّي، سالكًا طُرُقَهُم في الاستِدلالِ، ومناهِجَهُم في الاستِنباطِ. ومخالفةُ هذا السبيل أدَّىٰ بأقوامٍ تَقفَّروا العلمَ إلىٰ استحداثِ بِدَعٍ جعلوها سُننًا، وهجْرِ سُننٍ ظنُّوها بِدَعًا. »

حتىٰ قالَ العلامةُ بكرُ أبو زيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعليقًا علىٰ كلامِ الإمامِ أحمدَ السابقِ:** «أينَ هذا الهَديُ السُّنِّيُّ المُقتصِدُ في السُّنَّة منَ الذينَ يسْتَظهِرون سُننًا

---

(١) «مناقب أحمد» لابن الجوزي (ص١٧٨).

وهديًا في عَصرِنا لم تكُنْ مَعرُوفةً في عُمُرِ التَّاريخِ الإسلاميِّ؟! ثمَّ هم يُجادِلُون عليها، ثم يتديَّنون ببُغضِ منْ لم يَتَسَنَّنْ بها، واللهُ يعلمُ ما في أَنفُسِكم فاحْذَرُوه!»[1].

٥- الجهل بالسُّنَّة.

الجهل عاملٌ مُشتَرك في بُغضِ الشَّيء والانتِكَاس عنه، فمَن جَهِل الإسلامَ انتكَس عنه، بل عَادَاه، وقد قيل قديمًا: «النَّاس أعداءُ ما جَهِلوا»، فالجهل بالإسلام يؤدِّي إلىٰ الانتِكَاس عنه ومُحارَبَته، سواء كانت العَداوَة والمُحارَبة بقَصدٍ أو بغير قصدٍ، وما أكثَرَ ما نرىٰ ونسمع بعضَ المُنتَسِبين إلىٰ السُّنَّة -زورًا- يُحارِبون السُّنَّة تحت مُسمَّىٰ نُصرَةِ السُّنَّة ونُصرَة أهلها! وما حَمَلهم علىٰ ما هم عليه إلَّا الجهلُ بحقيقة السُّنَّة.

وإذنْ؛ فالعلمَ العلمَ عبادَ الله! فبدُونِه يضِلُّ مَن يضِلُّ، وبه يهتدي مَن يهتدي، وهَؤُلاءِ هم الخَوارِج لمَّا خرجوا علىٰ عليٍّ -رِضوان الله عليه- وكفَّروه وكفَّروا الصَّحابة -رِضوَان الله عليهم- بسبب جَهلِهم وتسرُّعِهم وعدم سُؤالِهم عمَّا استشَكَل عليهم، فكفَّروا عليًّا ابنَ عم رسول الله ﷺ، ورابعَ الخُلَفاء الرَّاشِدين المهدِيِّين، فلمَّا ذهب إليهم ابنُ عبَّاس حَبْرُ الأمَّة وعلَّمهم ممَّا علَّمه الله من العِلم الصَّحيح المؤيَّد بالدَّليل من الكتاب والسُّنَّة؛ رجع منهم ألفان،

---

(١) «المدخل المفصل» (١/ ٣٥٠).

وأمَّا مَن بقي مع الخَوارِج فقد بقي مُعانِدًا، ولكن انظر كيف ردَّ الله من هذا الضَّلال؛ ألفَيْ رجل كانوا بالأَمسِ يكفِّرون أَصحابَ الرَّسول ويرفعون عليهم السُّيوف، واليوم يُحارِبون مع حارب أَصحابَ الرَّسول ﷺ؛ كلُّ ذلك بالعلم.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَمَّا خرجت الحَرُوريَّة، اعتَزلُوا في دارٍ علىٰ حِدَتِهم، وكانوا ستَّة آلاف.

فقلتُ لعلي: يا أميرَ المؤمنين، أبرِدْ بالصلاة، لعلِّي أكلِّمُ هَؤُلاءِ القَومَ.

قال: إنِّي أخافُهم عليك.

قلتُ: كلَّا إن شاء الله، فلَبِستُ أحسنَ ما يكون من حُلَل اليَمن، وترجَّلْتُ، ودخلْتُ عليهم في دارٍ نصفَ النَّهار وهم يأكُلون (هكذا في مُعظَم الروايات، وفيه رواية: وهم قائِلُون) في نَحْرِ الظَّهيرَة.

فقالوا: مرحبًا بك يا بن عباس، فما هذه الحُلَّةُ؟

قلت: ما تَعِيبون عليَّ؟ لقد رأيتُ علىٰ رسول الله ﷺ أحسنَ ما يكون من الحُلَل، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

قالوا: فما جاء بك؟

قلتُ لهم: أتيتُكم من عند أَصحابِ النَّبيِّ ﷺ المُهاجِرين والأنصار، ومن

عند ابنِ عمِّ النَّبيِّ ﷺ وصِهْرِه، وعليهم نزل القرآن، فهم أعلَمُ بتأوِيلِه منكم، وليس فيكم منهم أحدٌ؛ لِأُبلِّغَكُم ما يقولون، وأُبَلِّغَهُم ما تقولون.

فقال بعضهم: لا تُخاصِموا قريشًا؛ فإن الله يقول: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف: ٥٨].

قال ابن عباس: وما أتيت قومًا قطُّ أشدَّ اجتهادًا منهم، مُسهِمَة وُجوهُهم من السَّهَر، كأنَّ أَيدِيَهم ورُكَبَهم تُثنَىٰ عليهم، فمضىٰ مَن حضر.

فقال بعضهم: لنُكَلِّمِنَّه ولننظرنَّ ما يقول.

قلت: هاتوا ما نَقِمْتم علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وابنِ عمِّه.

قالوا: ثلاث.

قلتُ: ما هُنَّ؟

قالوا: أمَّا إحداهُنَّ: فإنه حكَّم الرِّجال في أمر الله، وقال الله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ما شأنُ الرِّجال والحُكمِ؟!

قلت: هذه واحدة.

قالوا: وأمَّا الثانية: فإنَّه قاتَل ولم يَسْبِ ولم يَغنَم، إن كانوا كفَّارًا لقد حلَّ سبيُهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ سبيُهم ولا قِتالُهم.

قلت: هذه ثِنتان، فما الثالثة؟

قالوا: ومَحَا نَفسَه من أمير المُؤمِنين، فإن لم يكن أميرَ المؤمنين فهو أمير الكافِرين!

قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟

قالوا: حَسْبُنا هذا.

قلتُ لهم: أرأيتُكُم إن قرأْتُ عليكم من كتاب الله -جلَّ ثناؤه- وسنَّة نبيِّه ﷺ ما يردُّ قولَكُم، أَتَرجِعون؟

قالوا: نعم.

قلت: أمَّا قولكم: حكَّم الرجال في أمر الله، فإنِّي أقرأ عليكم في كتاب الله أن قد صيَّر حُكمَه إلىٰ الرِّجال في ثَمَن رُبُع دِرْهَم؛ فأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يحْكُموا فيه، أرأيتَ قولَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ [المائدة: ٩٥]. وكان من حُكْمِ الله أنَّه صيَّره إلىٰ الرجال يَحكُمون فيه، ولو شاء حكَم فيه، فجاز من حُكْم الرِّجال، أنشدُكُم بالله: أَحُكْمُ الرِّجال في صَلاح ذات البَيْنِ وحَقْنِ دمائهم أفضلُ، أو في أرنبٍ؟

قالوا: بلىٰ؛ بل هذا أفضل.

وقال في المرأة وزوجها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [النساء: ٣٥]، فنشدْتُكُم بالله حكم الرِّجال في صلاح ذاتِ بَينِهم وحَقْن دمائهم أفضلُ من حكمهم في بُضْع امرأةٍ؟

قالوا: اللهمَّ بل في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم.

خرجتُ من هذه؟

قالوا: نعم.

قلت: وأمَّا قولكم: قاتَل ولم يَسْبِ ولم يَغْنَم، أفتَسْبُون أمَّكم عائشة؟! تستحِلُّون منها ما تستَحِلُّون من غيرها وهي أمُّكم؟ فإن قلتم: إنَّا نستَحِلُّ منها ما نستَحِلُّ من غيرها، فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمِّنا، فقد كفرتم؛ ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٦]. فأنتم بين ضلالَتَيْن، فأْتُوا منها بمَخرَجٍ!

فنظر بعضُهم إلىٰ بعض.

أفخَرَجْتُ من هذه؟

قالوا: نعم.

وأمَّا قولكم: محا نفسَه من أمير المؤمنين، فأنا آتِيكُم بما تَرْضَون، قد

سَمِعْتم أنَّ نبيَّ الله ﷺ يوم الحُديبِيَة صالَح المُشرِكين، فقال لعلي: «**اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»، قالوا: لو نعلَمُ أنَّك رسولُ الله ما قاتَلْناك، فقال رسولُ الله ﷺ: «**امْحُ يَا عَلِيُّ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ، امْحُ يَا عَلِيُّ، وَاكْتُبْ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ**»، فوالله لَرَسُولُ الله ﷺ خيرٌ من عليٍّ، وما أخرَجَه من النُّبوَّة حين محا نفسَه، أخرجْتُ من هذه؟

قالوا: نعم.

فرَجَع منهم ألفان، وخرج سائِرُهم، فقُتِلُوا علىٰ ضلالتهم، قتَلَهم المهاجرون والأنصار»[(١)].

فانظر -يا رعاك الله- كيف انتكَسوا عن السُّنَّة إلىٰ البدعة بسبب جهلهم بما عَلِمه ابنُ عبَّاس وأخبرَهم به، فلمَّا كان سببُ انتِكاسِهم الجهلُ كان عِلاجُهم في العلم، فلمَّا ذهب إليهم عبد الله بنُ عبَّاس -رِضوَان الله عليهما- وعلَّمهم ما يحتاجون إليه من العلم رَجَع من رجع، وأمَّا مَن لم يرجِعْ فما انتكَس بسبب الجهل؛ إذ لمَّا عُلِّمَ ردَّ العلمَ ورَفض الانقيادَ له، وإنَّما انتكَسوا بدَسِيسَةٍ في نُفوسِهم، فلم ينفَعْهم العلم.

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ»، والحاكم في «المستدرك» وقال: حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافَقَه الذهبي.

٦- طباع السوء.

نعم، طِباع السُّوء، فكما أنَّ الطِّباع السَّيِّئة في الإنسان تُوقِعُه في الذُّنوب والمعاصي، فكذلك بعضُها يُوقِعُه في البدعة، فكما أنَّ الإنسان لو كان بخيلًا شحيحًا فإنَّه يَحرِم نَفسَه من أداءِ ما أوجبه الله عليه من زكاةٍ فيقع في الإثم، فإنَّه لو كان ديُّوثًا فإنَّ دِياثَتَه قد تُوقِعُه في الإرجاء، كذا لو كان مُعجَبًا بنفسه مُحتَقِرًا للنَّاس فإنَّه قد يقع في التَّكفير بلا مُوجِب فيُصبح خارجيًّا، أو يقع في تَبدِيع النَّاس بلا مُوجبٍ فيصير حداديًّا.

وكذلك لو أُعجِب بعَقلِه فإنَّه يصير عقلانيًّا معتزليًّا، أو قد يصل الغرورُ به إلىٰ حدِّ الزَّندَقة عياذًا بالله ولياذًا بجَنابِه.

لذلك تجد أكثرَ البدع المَوجُودة في أمَّة محمد ﷺ وُجِدَت بصُورَة أو بأُخرَىٰ -كلُّها أو بعضُها- في الأُمَم السَّابِقة، فافترَقت اليهود علىٰ إِحدَىٰ وسَبعِين فِرقةً، كلُّها في النار إلَّا التي كانت علىٰ ما كان عليه موسىٰ عليه السلام، وافترَقت النَّصارىٰ علىٰ ثِنْتَين وسبعين فرقةً، كلُّها في النَّار إلَّا التي كانت علىٰ ما كان عليه عيسىٰ عليه السلام، وكذلك أمَّة الإسلام افترَقت علىٰ ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كلُّها في النَّار إلَّا التي هي علىٰ ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه رِضوَان الله عليهم.

فكلُّ هذه الفِرَق في الأُمَم الثَّلاثة الأخيرة يتشابَهُ بعضُها مع بعضٍ، حتىٰ قيل: إنَّ منشأ الرَّفضِ -أي: بدعة الروافض- إنَّما كان من عبد الله بن سَبَأٍ اليهوديِّ، والذي كان يقول في اليهودِيَّة: إن يُوشَعَ بن نونٍ هو وصيُّ موسىٰ، فلمَّا ادَّعىٰ الإسلامَ أعلن أن عليًّا هو وصيُّ محمدٍ ﷺ، فالغلوُّ هو الغلوُّ لا يأتي إلا بالشَّرِّ.

فإنَّ بني البَشَر يتشابَهُون في طِباعِهم، وإن تغيَّر عليهم الزَّمانُ، وإن تغيَّرت عليهم الشَّرائِع، فيَنتابُهم من خصال الشَّرِّ ما ينتابُهم، فيصير ذلك لهم طبعًا وسجِيَّةً، وقد جاءت الشَّرائِع ليُغيِّرَ الإنسانُ من نَفسِه، وقد نزل الدِّينُ ليَدِينَ به النَّاسُ، لا بطَبَائِعهم ولا بغَرائِزِهم، وإنَّما يَدينُ بما أنزله الله عليه.

ومن أشهر ما يُضرَب به المَثَل في ذلك: الصِّدِّيقَان الفاروقَان: أبو بكر وعمرُ رضوان الله عليهما.

فأبو بكرٍ كان رفيقًا هادئًا، فلمَّا تحمَّل مسئولية أن يكون خليفةَ رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم- لم يستسلم لطبائِعِه وما اعتاد عليه من أسلوبٍ في إدارة الأمور، وإنما وَضَع الحزم في مَوضِع الحزم ولم يؤخِّرْه، فها هو يُجادِل عمرَ الفاروق ومَن معه من الصحابة في حرب الرِّدَّة، حتَّىٰ اجتمع رأيُ الصَّحابة علىٰ رأيه ومَشُورَتِه، وقال كلمتَه الشهيرة: «لو مَنَعونِي عِقالَ بعيرٍ كانوا

يؤدُّونه لرَسُول الله ﷺ لحارَبْتُهم عليه» فلم تحرِّكْه طِباعه، وإنَّما تحرَّك بأوامِرِ الشَّرع الحنيف.

وهذا هو عمر بن الخطاب -وهو الذي كان معروفًا بشِدَّته وقوَّتِه- لمَّا وَلِي الخلافَةَ كان يضع خدَّه علىٰ التراب ويَبْكي، وهو القائل: «لو عَثَرتْ بغلةٌ في العراق لَسَأَلَنِي اللهُ: لِمَ لَمْ تُمهِّدْ لها الطَّريقَ يا عُمَرُ؟».

وإذنْ؛ احذَرْ أن تأخُذَ من الدِّين ما يُوافِق طِباعَك وأَهواءَك وتَتْرُكَ ما لا يتَّفِق مع طِباعِك، ولكنْ عليك أن تُخضِع نَفسَك بطِباعِها وأَهوائِها للشَّرع؛ فما وافَقَه فبِهَا ونِعمَتْ، وما خالَفَه فلْتَتَخَلَّص منه حتَّىٰ لا يُهلِكَك.

* * *

فصل في أسباب الانتِكاسِ عن الطَّاعة والوِقايَة منه

وهذا النَّوع منَ الانتِكَاس هو الأَكثرُ انتِشارًا بين المُسلِمين، نَسأَل اللهَ السَّلامة والعافِيَة.

ولا شكَّ أنَّ انتِكاسَ المُسلم عن الطَّاعة وإِدبارَه عنها مع إِقبالِه علىٰ المعصية وانكِبَابِه عليها من أخطَرِ الأَمراضِ التي تُصِيب المُسلِمَ؛ إذ يعرِّضُه ذلك إلىٰ سُوءِ الخاتِمَة عياذًا بالله ولياذًا بجَنابِه الرَّحيم.

قال رسولُ الله -صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه وسَلَّم-: «**فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

وإذنْ؛ فالانتِكاسُ عن الطَّاعة من أكثَرِ الأشياء التي يحذَرُ منها المسلم؛ إذ يعرِّضُه إلىٰ سُوء الخاتِمَة عياذًا بالله.

وإذن؛ فعليه أن يتعلَّم أسبابَ الانتِكاسِ وكيفِيَّة الوِقايَة منه لينجُوَ بنَفسِه دنيا وآخِرَة.

ومن أسبابِ الانتِكاس عن الطَّاعة إلى المَعصِيَة:

١ - الجهلُ بالله جَلَّ وَعَلَا وبنِعَمِه علىٰ العبد.

فإنَّ الإنسان إذا جَهِل ما يجب عليه أن يَعْلَمَه عن ربِّه جَلَّ وَعَلَا فإنَّ جَهْلَه يغرُّه فيتجرَّأُ علىٰ الله جَلَّ وَعَلَا.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار: ٦].

قال العلَّامة السِّعدي في تَفسِيره لهذه الآيَةِ:

«يقول تعالىٰ مُعاتِبًا للإنسان المقصِّر في حقِّ ربِّه، المُتَجرِّئ علىٰ مَساخِطِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾؟

أتَهاوُنًا منك في حُقوقِه؟!

أم احتِقارًا منك لعَذابِه؟!

أم عَدَمَ إيمانٍ منك بجَزائِه؟!

أليس هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ في أَحسَن تقويمٍ؟!

﴿فَعَدَلَكَ﴾ وركَّبك تركيبًا قويمًا معتدلًا في أَحسَن الأَشكالِ، وأَجمَل الهَيْئاتِ، فهل يليق بك أن تكفُرَ نِعمَة المُنعِم، أو تَجحَدَ إِحسانَ المُحسِن؟!

إنْ هذا إلَّا من جَهلِك وظُلمِك وعِنادِك وغُشمِك، فاحمَدِ اللهَ أنْ لم يجعلْ صُورتَكَ صُورَةَ كلبٍ أو حِمارٍ، أو نَحوِهِما من الحَيَوانات؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

[وقوله]: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ أي: مع هذا الوعظِ والتَّذكيرِ، لا تَزالُون مستمرِّين علىٰ التَّكذيب بالجَزاءِ.

وأنتم لابدَّ أن تُحاسَبوا علىٰ ما عَمِلْتم، وقد أقام الله عليكم ملائكةً كِرامًا يكتُبون أقوالَكُم وأفعالَكُم ويعلمون أَفعالَكُم» اهـ.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ: سَمِعْتُ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ بَدَأَ بِالْيَمِينِ قَبْلَ الْحَدِيثِ، فَقَالَ: «وَاللهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيَخْلُو بِرَبِّهِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا بْنَ آدَمَ، مَا غَرَّكَ بِي؟! يَا بْنَ آدَمَ، مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟! يَا بْنَ آدَمَ، مَاذَا أَجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ»[1].

فلو علم الإنسانُ عَظَمة ربِّه جَلَّوَعَلَا وعظيمَ فَضلِه عليه ما تَرَك طاعَتَه

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرىٰ» برقم (١١٨٤٣).

لمعصِيَتِه، وما تجرَّأَ علىٰ مُخالَفَة أَمرِه.

وإذنْ؛ فالعلم عن الله من أهمِّ ما يتعلَّمُه المُسلِم لكي يحفَظَ نفسَه من الانحِراف في الأخلاق أو العقائِدِ.

٢- دَسِيسَةُ السُّوءِ.

كثيرٌ من النَّاس مَن يعبد الله وفي قلبه دَسِيسَةُ السُّوءِ؛ فإذا أصابَتْه فتنةٌ انقَلَب علىٰ وَجهِه خَسِر الدُّنيا والآخِرَة، نسأل اللهَ السَّلامة والعافِيَة.

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج: ١١].

قال العلَّامة ابنُ كثيرٍ في تَفسِيره لهذه الآيَةِ:

«قال مجاهِدٌ، وقتادَةُ، وغيرُهُما: ﴿عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾: علىٰ شكٍّ. وقال غيرُهم: علىٰ طَرَفٍ.

ومنه حَرْفُ الجَبَل، أي: طَرَفه، أي: دخل في الدين علىٰ طَرَف، فإنْ وجد ما يُحِبُّه استقَرَّ، وإلا انشمَرَ.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيىٰ بن أبي بُكَيْر،

حدثنا إسرائيل، عن أبي حَصِين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباسٍ: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ**﴾ قال: كان الرَّجل يَقدَم المدينة، فإنْ وَلَدت امرأتُه غلامًا، ونُتِجَت خيلُه، قال: هذا دينٌ صالِحٌ. وإن لم تَلِدِ امرَأَتُه، ولم تُنتَج خَيلُه قال: هذا دينٌ سوءٌ» (١).

قال العلَّامة ابنُ رَجَب رحمة الله عليه:

«وفي «الصحيحين» عن سهل بن سعد: أنَّ النَّبيَّ ﷺ التقىٰ هو والمُشرِكون، وفي أصحابه رجلٌ لا يَدَع شاذَّةً ولا فاذَّةً إلَّا اتَّبَعها يَضرِبُها بسَيفِه، فقالوا: ما أجزأَ منَّا اليومَ أحدٌ كما أجزَأَ فلانٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فقال رجلٌ من القوم: أنا صاحبُه، فاتَّبَعه، فجُرِحَ الرجلُ جُرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموتَ، فوضعَ نصلَ سيفه علىٰ الأرض وذُبَابَه بينَ ثديَيْه، ثُمَّ تحامل علىٰ سيفه فقتل نفسَه، فخرج الرجلُ إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنَّك رسولُ الله، وقصَّ عليه القصةَ، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» زاد البخاري في رواية له: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**».

وقوله: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**» إشارةٌ إلىٰ أنَّ باطِنَ الأمر يكونُ بخِلافِ ذلك،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٤٢).

وأَنَّ خاتِمَة السُّوءِ تكونُ بسَبَب دَسِيسةٍ باطِنَة للعَبدِ لا يطَّلِع عليها النَّاس، إمَّا من جِهَة عملٍ سيئٍ ونحوِ ذلك، فتلك الخَصلَة الخفِيَّة تُوجِب سُوءَ الخاتِمَة عند الموت، وكذلك قد يعمَلُ الرجلُ عملَ أهل النَّارِ وفي باطِنِه خَصلةٌ خفِيَّةٌ من خِصال الخَيرِ، فتَغلِب عليه تلكَ الخَصلَةُ في آخِرِ عُمُره فتُوجِبُ له حُسْنَ الخاتمة» اهـ[1].

فعلىٰ الإنسان أن يبحثَ في ذاتِهِ وأن يُنقِّيَ ضَميرَه، وأن يُصفِّيَ اعتِقادَه، وعليه أن يعالِجَ عُيوبَ نفسه، ولا يَتْرُكَها حتىٰ تستأسِدَ عليه قبل مَوتِه فتُهلِكَه، لِيُقْبِلَ علىٰ ربِّه نظيفَ القلب، قويَّ العزم، بيقينٍ لا شكَّ فيه، وإيمانٍ لا تردُّدَ يَعتَرِيه، حتَّىٰ لا يُعرِّض نفسَه للمَهالِك، في وقتٍ لا ينفع فيه شيءٌ إلَّا مَن أتىٰ الله بقلب سليم.

٢- ذُنوب الخَلَوات.

قالَ بعض السلف: «ذُنوبُ الخَلواتِ تُؤَدِّي إلىٰ الانتِكاساتِ، وَطاعَة الخَلوات طَريقٌ للثَّباتِ حَتَّىٰ المَمات بِإذنِ الله».

قال ابن الجوزيِّ في «صيد الخاطر»:

«والحذَرَ الحذَرَ من الذنوبِ! خصوصًا ذنوب الخَلَوات؛ فإن المُبارَزة لله

---

(١) «جامع العلوم والحكم» صفحة (١٧٢ وما بعدها).

تعالىٰ تُسقِط العبد من عَينِه، وأصلِحْ ما بينك وبينه في السِّرِّ، وقد أصلح لك أحوالَ العَلَانِيَة، ولا تغترَّ بسِتْرِه -أيها العاصي- فربَّما يَجذِب من عَورَتِك، ولا بحِلْمِه، فربَّما بَغَتَ العُقابُ!»(١).

وقبل هذه الآثارِ كلِّها ما جاء عَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا**». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَلَّا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ؛ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا**»(٢).

وإذنْ؛ فذُنوب الخَلَوات هي المُهلِكات، فإنْ نجا من أَثَرِها في الدُّنيا بقي له ضَياعُ حَسَناته في الآخِرَة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال ابن الجوزِيِّ:

«وقد يُخفِي الإنسانُ ما لا يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ، فيُظهِره الله سبحانه عليه ولو بعد حينٍ، ويُنطِق الألسِنَة به وإن لم يشاهِدْه النَّاس، وربَّما أوقع صاحِبَه في آفةٍ يَفضَحُه بِها بين الخلقِ، فيكون جوابًا لكلِّ ما أخفىٰ من الذُّنوب، وذلك لِيَعْلَمَ

(١) «صيد الخاطر» صفحة (٢٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٥٠٢٨).

النَّاس أن هناك مَن يُجازِي علىٰ الزَّلَل»[1].

وقد قيل: «لا تَكُنْ ولِيًّا لله في العَلَن، عدوًّا لله في السِّرِّ».

وحاصِلُ الأمرِ: أن ذنوبَ الخَلَوات تُهلِك العبدَ، وتقرِّبُه من الانتِكاس، وكيف لا تكون كذلك وقد توعَّد الله مَن يفعل مثلَ هذه الأفعال بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩﴾ [النساء: ١٠٧ - ١٠٩].

قال العلَّامة السِّعدي في تفسيره للآيَةِ:

«﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ الاختيان والخيانة بمعنىٰ الجِنايَة والظُّلمِ والإِثمِ، وهذا يشمَلُ النَّهي عن المُجادَلة عمن أذنبَ وتَوجَّه عليه عقوبةٌ من حدٍّ أو تعزيرٍ؛ فإنَّه لا يُجادَل عنه بدفع ما صَدَر منه من الخِيانَة، أو بدَفعِ ما ترتَّب علىٰ ذلك من العُقوبة الشَّرعيَّة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾ أي: كثيرَ الخِيانَة والإثم، وإذا انتفىٰ الحبُّ ثبت ضِدُّه وهو البُغْض،

---

(١) «صيد الخاطر» صفحة (٦٨).

وهذا كالتَّعليل للنَّهي المتقدِّم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنَّهم ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ وهذا من ضعف الإيمان، ونُقصان اليقين، أن تكون مخافَةُ الخلقِ عندهم أعظَمَ من مخافة الله، فيَحرِصون بالطُّرقِ المُباحَة والمحرَّمة علىٰ عدم الفضيحة عند النَّاس، وهم مع ذلك قد بارَزُوا اللهَ بالعَظائِم، ولم يُبالوا بنظَرِه واطِّلاعِه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أَحوالِهم، خُصوصًا في حال تَبيِيتِهم ما لا يُرضِيه من القول، من تَبْرِئَة الجانِي، ورميِ البريءِ بالجِنايَة، والسَّعي في ذلك للرَّسول ﷺ لِيَفْعَل ما بيَّتُوه.

فقد جَمَعوا بين عِدَّة جِنايَات، ولم يُراقِبوا ربَّ الأرضِ والسَّموات، المُطلِعَ علىٰ سَرائِرهم وضَمائِرهم، ولهذا توعَّدَهم تعالىٰ بقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: قد أحاط بذلك علمًا، ومع هذا لم يُعاجِلْهم بالعقوبة، بل استَأْنَىٰ بِهم، وعَرَض عليهم التَّوبة، وحذَّرَهم من الإصرار علىٰ ذَنبِهم المُوجِبِ للعُقوبة البَلِيغَة.

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي: هَبْكُمْ جادَلْتُم عنهم في هذه الحياة

الدُّنيا، ودفع عنهم جدالُكم بعضَ ما تَحذَرون من العار والفَضِيحَة عند الخَلْق، فماذا يُغنِي عنهم وينفَعُهم؟! ومَن يجادِلُ الله عنهم يوم القيامة حين تتوجَّه عليهم الحُجَّة، وتشهَدُ عليهم ألسِنتُهم وأَيدِيهم وأَرجُلُهم بما كانوا يعملون؟! ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور: ٢٥].

فمَن يجادِلُ عنهم مَن يعلم السِّرَّ وأخفَىٰ، ومَن أقام عليهم من الشُّهود ما لا يمكن معه الإِنكارُ؟!

وفي هذه الآية إرشادُ إلىٰ المُقابَلَة بين ما يُتوَهَّم من مَصالحِ الدُّنيا المُترَتِّبة علىٰ تَرْك أوامرِ الله أو فِعْلِ مَناهِيه، وبين ما يَفُوت من ثَواب الآخِرَة أو يَحصُل من عُقوباتِها.

فيقول مَن أمرَتْه نفسُه بتَرْك أمْرِ الله: هَا أَنْتَ تركْتَ أمرَه كَسَلًا وتفريطًا، فما النَّفع الذي انتفعْتَ به؟! وماذا فاتك من ثواب الآخِرَة؟! وماذا ترتَّب علىٰ هذا التَّرْك من الشَّقاء والحِرمان والخَيبَة والخُسران؟!

وكذلك إذا دعتْهُ نفسُه إلىٰ ما تشتَهِيه من الشَّهَوات المحرَّمة قال لها: هَبْكِ فعلْتِ ما اشتهيْتِ، فإنَّ لذَّتَه تنقضي ويَعقُبها من الهُموم والغُموم والحَسَرات، وفواتِ الثَّواب وحُصول العقاب - ما بعضُه يكفي العاقلَ في الإحجامِ عنها!

وهذا من أعظَمِ ما ينفع العبدَ تدبُّرُه، وهو خاصَّة العقل الحقيقيِّ، بخِلاف

الذي يدَّعي العقل، وليس كذلك، فإنَّه بجَهلِه وظُلمِه يؤْثِر اللَّذَّة الحاضِرَة والرَّاحةَ الرَّاهِنَة، ولو ترتَّب عليها ما ترتَّب، والله المستعان»اهـ.

٣- ضعفُ الإيمان وعدَمُ تعهُّدِه بالرِّعاية اللَّازِمَة.

إنَّ نُقصانَ الإيمان وضعْفَه لهو سببُ كلِّ سوءٍ وبابُ كلِّ فتنةٍ؛ فإنَّ الإيمان في القلب بمَثابة المَناعَة للجَسَد، فكما أنَّ المناعة تُحارِب كلَّ فيروس أو مرض يدخل إلىٰ البدن، فكذلك الإيمانُ يُحارِب كلَّ شُبهة أو شهوة تدخلُ إلىٰ القلبِ، فأيُّهما كان أقوىٰ كانتِ الغَلَبة له.

إنَّ صاحِبَ الإيمان الضَّعيفِ يؤثِّر فيه ما لا يؤثِّر في غَيرِه من أصحاب الإيمان القويِّ، فعند أوَّل فتنةٍ يرسُبُ ويَخسَر، ألَا ترىٰ المريضَ قد استحْكَم عليه مَرَضُه بسبب ضعف مَناعَتِه أو انعِدَامِها؟!

وكما أنَّ الأَمراضَ تزيد المناعة الضَّعيفَة ضعفًا فإنَّ الشَّهواتِ والشُّبهاتِ والفتنَ تزيد الإيمانَ الضعيفَ ضعفًا.

قال رسول الله ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ لَهُ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّىٰ يَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ: أَبْيَضُ مِثْلُ الصَّفَا، فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلا مَا**

أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[1].

النَّبيُّ ﷺ يوضِّح -كما مر معنا- أنَّ القلوب تكون نقيَّةً، فإذا أقبلَتْ عليها الفتنُ فسُمِح لها أن تدخل القلبَ فإنَّها تنكُتُ فيه نُكتةً سوداءَ، والنُّكتةُ النُّقطَة سواءً بسواءٍ.

وأمَّا إنْ ردَّها القلبُ ولم يَسمَح لها بالدُّخول فإنَّه يزداد إيمانًا علىٰ إيمانه ونقاءً علىٰ نقائه.

وإذنْ؛ فضَعْفُ القلب وتَوارُدُ الفتن عليه يؤدِّيان إلىٰ الانتِكاسِ لا مَحالَةَ، إلَّا أن يشاء ربِّي شيئًا.

فعلىٰ الإنسان أن يبتَعِدَ عن الفتن، وأن يتعاهَدَ إِيمانَه وقلبَهُ أن يضعُفَا عن إنكار الفتن فيَهلِك.

وليس علاجُ الأَمرِ في الإِكثار من أَعمالِ البِرِّ وفقط؛ وإنَّما أيضًا في تَرْك ما نَهَىٰ الله عنه.

قال سهل بن عبد الله التُّسَتَرِيُّ: «ليس مَن عَمِل بطاعة الله صار حبيبَ الله، ولكنْ مَن اجتَنَب ما نَهىٰ الله عنه صار حبيبَ الله، ولا يجتَنِب الآثامَ إلا صدِّيق

(١) رواه مسلم.

مقرَّب، وأمَّا أعمال البِرِّ يعمَلُها البَرُّ والفاجِرُ»[١].

فليتعهد الإنسانُ قلبَه، ولْيُقْبِلْ علىٰ ربِّه، ويَنظُر في إيمانِه، لعَلَّ اللهَ يُنجيه من الفِتن وأضرارها.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٤ - صحبة السوء.

قال رسولُ الله ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[٢].

إنّ الصُّحبةَ لها أكبَرُ تأثيرٍ في الإنسان، حتىٰ قال رسول الله ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ**» من شدَّة تأثُّر الصَّاحِب بصاحِبِه والخَليلِ بخَليلِه، ومعلومٌ أنَّ الصاحِبَ ساحِبٌ.

روىٰ الإمام مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ فَدُلَّ عَلَىٰ رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّه قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا،**

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي.

فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَىٰ رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّه قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوبَةِ! انْطَلِقْ إِلَىٰ أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ، فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَىٰ أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ.

فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَىٰ اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّه لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَىٰ أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَىٰ فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَىٰ إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ؛ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ».

قال قتادة: فقال الحسن: ذُكِرَ لنا أنَّه لمَّا أتاه الموت نَأَىٰ بصَدْرِه[١]. [أي: مال بصَدْرِه تُجاهَ أرضِ التَّوبَة ليبتَعِد عن الأَرضِ التي فَعَل فيها من المُنكَرات ما فعل].

والشَّاهد من الحديث: ما قاله العالِمُ لهذا العبد التائبِ: «**انْطَلِقْ إِلَىٰ أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ، فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَىٰ أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ**».

فانظُرْ كيف حذَّره من الِاستِمرار في مُجالَسة أهل تلك القَرية التي وَصَفها

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، انظر رقم (٢٧٦٦).

بأنَّها «**أَرْضُ سُوءٍ**»! وقطعًا ما قصد الأرضَ ذاتَها، وإنما قصد أهلَها، وأرشدَهُ أن يذهبَ إلىٰ أرض كذا وكذا؛ إذ بِها ما بِها من عِباد الله الصَّالحين الذين يُقبِلون علىٰ الله جَلَّوَعَلَا، فوُجُوده بينهم سيُصلِحُه، أمَّا أرضُه التي فيها من السُّوءِ ما فيها فإنَّها تُفسِدُه ما بَقِي بِها مقيمًا.

فاحذَرْ أخي رُفقَة السُّوءِ! فإنَّها تذكِّر المرءَ بما كان عليه من معصِيَة، ومُصاحَبَته لهم لا تخلو من وُجوده حالَ عِصيانِهم، وفي هذا من الأضرار ما لا يعلَمُه إلا الله، ومن هذه الأضرار أنَّها تهوِّن المعصِيَةَ علىٰ المَرءِ، وتجعَلُه يعتادُ وُقوعَها أمامَه حتَّىٰ يراها ولا يستَنكِرَها قلبُه، فيَسهُلَ علىٰ الشيطان بعد ذلك استِدراجُه إليها، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم.

٥- الانشِغالُ بالمَفضُول من الأعمال.

الجهلُ يُقبِل بالعَبدِ حالَ نشاطِه علىٰ ما لا ينفَعُه من الأعمال، فيجتَهِد حالَ اجتِهادِه ويتحصَّل علىٰ أقلِّ مردودٍ من هذا الاجتهادِ، بسبَبِ جهلِه وقلَّة عِلمِه، ولو كان عالمًا بما ينفَعُه لَاسْتَثْمَرَ وقته في أفضلِ الأعمال، ولَعادَ من هذه الأعمال بأكبَرِ مردودٍ علىٰ نفسه في الدُّنيا وفي صَحِيفَتِه في الآخِرَة.

ومثال ذلك: مَن ينشَغِل في ليلة القَدْر بقَضاءِ حَوائِجِ النَّاس، وهو وإن كان قد قام بعملٍ صالحٍ إلا أنَّه تَرَك الفاضِلَ من الأعمال والأفضَلَ منها، وفعل

المَفضُول الأقلَّ في الأجرِ أو الأقلَّ في النَّفعِ في تلك اللَّيلة؛ إذ إنَّه قضىٰ الليلة في غير الدُّعاء الوارِدِ عن رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»، والصَّلاة وقِراءَة القرآن، فيخرُجُ منها وقد تحصَّل علىٰ أجر قليلٍ وخَسِر الأجرَ الأعظمَ، هذا في باب المُفاضَلَة بين الأعمال الصَّالِحَة التي يؤجَرُ عليها العبد، فكيف لو انشَغَل بما لم يَشْرَعْه اللهُ جَلَّوَعَلَا ولا رسولُه ﷺ؟!

فيُصبِح وقد ضيَّع من الوَقتِ والجُهدِ ما ضيَّع، ثم هو في ذلك مُطالَبٌ بأن يكون قد تحصَّل علىٰ ما يُحصِّنُه من أَعدائِه في الطَّريق الذي يسلُكُه إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، فيجِدُ الشَّيطانَ بسُبُله المُلتَوِية والنَّفسَ برَغَباتِها وشَهَواتِها، والدُّنيا بمُغْرِياتِها، وهو علىٰ ضَعْفِه وقلَّةِ حِيلَتِه يبحَثُ عن المَفضُول من الأعمال فيأتِيه ويتْرُكُ الأفضلَ!

ولقد رأيتُ بعيني مَن تَرَك الدُّنيا كلَّها وأقبَلَ علىٰ ربِّه، فلمَّا أراد الالتزام بأوامِرِ الله لم يُوفَّقْ إلىٰ عالِمٍ يدلُّه علىٰ ما ينفَعُه، بل ذهب إلىٰ عابِدٍ قليلِ العلم كثيرِ العَمَل، يقع في بعض المُخالَفات والبدع ولا يبالي بِها؛ لأنَّها تمكِّنُه من كَثْرة العبادة -في زعمه-، فما لَبِث هذا الرَّجل التَّابِعُ لشَيخِه العابد حتَّىٰ ابتلاه الله ببلاءٍ فلم يتحمَّلْه، ورَسَب عند أوَّل اختِبارٍ نزل به، فانتكَس حالُهُ وعاد أسوأَ ممَّا كان، نسأل الله السَّلامة والعافِيَة.

فالعِلْمَ العِلْمَ! وقد مرَّ معنا أهمِّيَّة العِلْم في فُصولٍ كثيرَةٍ؛ إذ لا نجاةَ إلَّا به.

خَاتِمَةٌ

عَن الاِسْتِقامَة والنَّشاط

وخَيرُ ما أَخْتِمُ به هذا الكتابَ هو الكلامُ عن الاستقامَةِ والنَّشاط، وخُطُورة الانْحِراف والكَسَل، فمَن استقام علىٰ صَحِيح الدِّين ولم تَحرِفْه السُّبُل، ونَشِطَ في البَذْل له وأداءِ ما أوْجَبَه اللهُ عليه **فقد عَرَف وَلزَم**.

فعلىٰ الإنسانِ أن يَضبِطَ عَقيدَتَه ومَنهجَه، وعليه أنْ يَسيرَ علىٰ الطَّريق المُستَقيم، ثم يَنشَط في هذا المَسِير، وقد قِيل: إنَّ عُمرَ بنَ الخَطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سأل أُبَيَّ بنَ كَعب عن التَّقوىٰ، فقال له: أمَا سَلكتَ طَريقًا ذا شَوْك؟ قال: بلىٰ. قال: فمَا عَمِلتَ؟ قال: شَمَّرتُ واجْتَهدتُ. قال: فذلك التَّقوىٰ.

وقيل:

خَلِّ الذُّنوبَ صَغيرَها ... وكَبيرَها ذاك التُّقَىٰ

وَاصْنَع كمَاشٍ فوقَ أَرْ ... ضِ الشَّوكِ يَحذَرُ مَا يَرىٰ

لا تَحقِرَنَّ صَغيرَةً ... إنَّ الجبَالَ مِن الحَصَىٰ

فليَحذَرِ الإنسانُ مِن الشِّرك، ولْيَسْتَقِم علىٰ جادَّةِ الإسلامِ والتَّوحيد، بتَنقِيَة القلبِ والإقبالِ علىٰ الرَّبِّ وَحدَه، وعَدَمِ صَرفِ ما يُصْرَف له سبحانه لغَيْره مِن الأحياءِ والأموات، والأنْبِياء والأَوْلياء، والجِنِّ والإنسِ، والمَلائكة والبَشَر، والكَواكب والشَّجر، فهو سبحانه وَحدَه المُعينُ والمُعاذُ، وبه يُستغاثُ سبحانه.

وليَحذَر المرءُ من البِدْعَة، فكل بِدعةٍ ضَلالةٌ، وهي انحرافٌ عن صِراط السُنَّة المُستقيم، تُبعد العبدَ عن ربِّه لا تُقرِّبُه، لأنه سبحانه لم يَأذَن لأحدٍ أن يتقرَّبَ إليه بغير ما شَرعه هو سبحانه في كتابِه أو علىٰ لسان نبيِّه ﷺ، فلو تَجاوَز المرءُ ذلك وأقبَل علىٰ هواه يُحَكِّمه فيما هو لله، فيَتقرَّب إلىٰ الله بما يَستحْسِنُه عَقلُه لا بما شَرعه ربُّه، فإنه بذلك قد ابْتعدَ عن الصِّراط المُستقيم، وخالفَ المِنهاجَ القَويم، وصار مُتَوعَّدًا بالنَّار والعياذُ بالله، كما مَرَّ معنا في حَديث الافتراق.

وأما الذُّنوب والمَعاصي كبيرُها وصغيرُها، فهي مِن الخُطورة بمكانٍ، وقد حذَّر منها رسولُ الله ﷺ، ومِن أثَرها علىٰ القَلْب، فإذا ما وَقع فيها العبدُ واستَمْرَأَها واعتادَها فإنه يَتحَوَّل من عبدٍ صالحٍ إلىٰ طالِحٍ ساقِط مِن عين الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِىٰ إِلَىٰ الْبِرِّ، وَإِنَّ**

الْبِرَّ يَهْدِىٰ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِىٰ إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِىٰ إِلَىٰ النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا »[(١)].

أرأيتَ كيف تَحوَّل الرَّجُلُ شَيئًا فشيئًا حتىٰ كُتِب عند الله كذَّابًا؟!

وقد قِيل: «أعمَال البِرِّ يَعمَلُها البَارُّ والفاجِر، والمَعاصي لا يَتْرُكُها إلا صِدِّيقٌ».

وإذَن، فاسْتِمْراءُ الذَّنب واعتيادُه من أسبابِ الهَلاك وسُقوط العَبد من نَظَر الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا.

فكيف لو وقَع في البِدعة التي قال رسولُ الله ﷺ عنها: «**كلُّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ، وكُلُّ ضَلالَةٍ في النَّار**»[(٢)].

وثبت أيضًا عن رسُول الله ﷺ أنه قال: «**عَلَيكُم بسُنَّتي وسنَّة الخُلفاء المَهدِيِّينَ الرَّاشِدين، تَمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذ، وإيَّاكم ومُحدَثَات الأمُور؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بِدعَة، وكلَّ بِدعَة ضَلالَة**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، انظر رقم (٦٨٠٥).

(٢) رواه مُسلمٌ، والزِّيادة علىٰ شرط مُسلم كما قال الألباني.

(٣) رواه أبو داودَ وغيرُه، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وفي الحَديث الآخَر: «**مَن أحْدَث في أَمْرِنا هذا ما لَيس منه فهُو رَدٌّ**»(١)، وقال أيضًا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَن عَمِل عَمَلًا ليس عليه أَمرُنا فهو رَدٌّ**»(٢).

وقد رُوي عن سُفيانَ الثَّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ البِدعَةَ أَحبُّ إلىٰ إبلِيسَ مِن المَعصِية؛ لأنَّ البِدعةَ لا يُتاب منها، والمَعصية يُتاب منها»(٣).

فكَيف لو وَقَع في الشِّرك الذي هو أكبَر الكبائر علىٰ الإطْلاق، وهو الذَّنْب الذي لا يَغفِرُه اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨** ﴾ [النساء: ٤٨].

إن الشِّرك يُضَيِّعُ علىٰ العَبد مَغفِرة الرَّبِّ، ويُورِدُه النَّارَ وبِئسَ القَرار.

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ: **يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِىٰ بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِىٰ لَا تُشْرِكُ بِىٰ شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(٤).

وإذَن، فالتَّوحيد الصَّافي الذي لا شِركَ فيه يَعفو الله عن صاحبِه ولو جاء

---

(١) متَّفق عليه.

(٢) رواه مُسلم.

(٣) «التُّحفة العِراقية في الأعمال القَلبيَّة» (ص١٢).

(٤) قال الشَّيخ الألباني: «حَسَن». انْظُر حديث رقم: (٤٣٣٨) في «صحيح الجامع».

بِقُراب الأرضِ -أي: مِلئ الأَرْض- خَطايا، فأيُّ خُسرانٍ يَنالُ المَرءَ إذا ما وَقَع في الشِّرك؟!

وأيُّ فَلاح ونَجاحٍ يَتحصَّل عليه العبدُ إذا ما مات علىٰ التَّوحيد الصَّافي؟!

فعَجبًا للمُوحِّد عاش حرًّا لا يَستَرِقُّه مَخلوق، ومات فائزًا بجنَّات الخُلود!

فاستقم كما أُمرتَ، وإياك وبُنَيَّاتِ الطَّريق، فإذا استَقمتَ فسارع وسابِق إلىٰ الله جلا وعلا، فإن الطَّريقَ طَويل، ودرجات الجِنَان كثيرَة، ولرُبَّما حُرِمتَ أن تكونَ في درجةٍ فيها من الصِّدِّيقِين مَن تَرغب في أن تَكون معه في دَرجةٍ واحدة، بسَبب عملٍ تَكاسَلت عنه، أو طاعةٍ اسْتَثْقَلْتَهَا.

«**إنَّ للمُسارعة إلىٰ الخيرات فوائدَ كَثيرةً، منها:**

- **أنَّها استجابةٌ لله ورَسُوله**: قال تعالىٰ: ﴿**وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤**﴾[آل عمران: ١١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ **وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣**﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾

[الأنفال: ٢٤].

- **أنها دليلٌ على عُلوِّ الهِمَّة:** والإسلامُ حثَّ على عُلوِّ الهِمَّة، فقال تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧]، وقال تَعالىٰ: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، وقال ﷺ: «**احْرِصْ على ما يَنْفَعُك، واسْتَعِنْ بالله ولا تَعْجِز**»[(١)]، وقال ﷺ: «**إذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ**»[(٢)].

ومِن فَوائدها: أن الإنسانَ لا يَدري ما يَعْرِضُ له مِن مَوتٍ أو مَرضٍ، وقد قال ﷺ: «**إذا مات ابنُ آدمَ انْقطَع عَملُه إلَّا مِن ثَلاثٍ: صَدَقةٍ جَارية، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَه..**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**اغْتَنِمْ خَمسًا قَبلَ خَمسٍ: حَياتَك قبل مَوتِك، وصِحَّتَك قبل مَرَضِك، وفرَاغَك قبل شُغلِكَ، وشَبابَك قَبل هِرَمِك**»، وقال ﷺ: «**بادِرُوا بالأعمَال فِتنًا كَقِطَعِ اللَّيل المُظْلِم، يُصبِحُ الرَّجلُ مُؤمِنًا ويُمْسِي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبِحُ كَافرًا، يَبيعُ دِينَه بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيا**»[(٤)].

فلا يَدري الإنسانُ مَتىٰ يَهجِم عليه المَوتُ؛ لأن الموتَ يأتي بَغتَةً، والقَبْر صُندُوق العَمَل، فالمَوت لا يَستأذنُ علىٰ أحدٍ، ولا يَعرِفُ بوابًّا، ولا وَزيرًا، ولا

---

(١) رواه الإمام مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢١٥٨٢)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٥/ ١٧٨) برقم (٢١٤٥).

(٣) رواه مسلم (١٦٣١).

(٤) رواه الإمام مسلم (١١٨).

يَعرِف عظيمًا، ولا حقيرًا، ولا يعرفُ حَاكمًا، ولا محكومًا.

عبادَ الله: إنَّ المُسارَعةَ إلىٰ الخَيرات دليلُ الحُبِّ والعُبودِيَّة الحقَّة، فإنَّ سُرعَةَ الاستجابَةِ نَاتِجةٌ عن حُبِّ الله ورسُولِه ﷺ، والثِّقَة بوَعْده، والإيمانِ به، فاتَّقوا الله - أيُّها المُؤمنون -، واستَجيبُوا لرَبِّكم إذ دعاكُم إلىٰ المُسارعة إلىٰ مَغفرته وَجَنَّتِه؛ باستباقِ الخَيرات، وعَمل الصَّالحات؛ من التَّقوىٰ، والنَّفقة ابتغاء وَجْهه، والحِلم والعَفو، وغير ذلك مِن وُجوه الإحسان، والتَّوبة من الفَواحش، وظُلم النُّفوس؛ طمعًا في مغفرةِ الله، وواسِع رَحمَته، وفَسيحِ جَنَّته، فبادروا إلىٰ ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾ [فاطر: ٥]».

وما أشد ما رُوي عن سفيان في هذا الباب: « **لا تكن كعبد السوء لا يأتي حتىٰ يُدعىٰ، ائت الصلاة قبل النداء** »(١).

فاللهَ أَسأَلُ أنْ يَجعلَ هذا الكلامَ حُجَّةً لي لا عَليَّ، وأن يَنفعَ به المُسلمين، ويَشفي به الفاتِرين، ويَرُدَّ به المُنْتَكِسين المُتَنكِّبينَ للطَّريق المُستقيم، إنه وَلِيُّ ذلك والقادِرُ عَليه.

* * *

(١) رواه ابن أبي نعيم في الحلية (٧/ ٢٨٥).



جدول محتويات الكتاب

جدول محتويات الكتاب

مقدمة ٦

تَنبيهٌ مُهِمٌّ.. ١٢

الباب الأول: الفتور ١٣

فصل: تعريف الفتور.. ١٥

فصلٌ في حَقِيقة الإِيمانِ في القُلوبِ وأَثَر المَعصِيَة عليه ١٨

الإيمان يزيد وينقص.. ١٨

الإيمان يبلىٰ كما يبلىٰ الثوب ١٩

ولكن يا حنظلة ساعة وساعة.. ٢١

الشاهد من حديث حنظلة.. ٢١

احتياج المرء إلىٰ هِمَّة تُسَيِّره وتُرَقِّيه وعِلمٍ يُبَصِّره ويَهدِيه ٢٢

المعاصي تجعل صاحِبَها من السِّفْلَة ٢٣

فصلٌ في طَبِيعَة السَّيرِ إلىٰ اللهِ ٢٦

فصلٌ في أنواعِ الفُتُور ٢٨

فُتورٌ عارِضٌ حميدٌ.. ٢٨

فُتور عارِضٌ خبيثٌ ٣٢
فُتورٌ شِبْهُ دائِمٍ خبيثٌ.. ٣٣
الفُتورُ الدَّائِمُ (فُتورُ المُنافِقين) ٣٤
فصلٌ في ذَمِّ الفُتور.. ٣٩
مَن تعطَّل وتبطَّل انسلَخَ من الإِنسانِيَّة ٤٥
فصل في أسباب الفتور ٤٧
القُصورُ البَشَرِيُّ ٤٧
مُعالجَة الفُتورِ بطَرِيقَة خاطِئَةٍ... ٤٩
المَعاصِي ٥٠
ضعف اليقين وطول الأمل ٥٤
مجالسة البطالين الكُسالىٰ ٥٩
الحرص علىٰ الدنيا والانشغال بها ٦٠
فصلٌ في علاجِ الفُتور وكيفِيَّة التَّعامُل معه......................... ٦٣
عدمُ الإِفراطِ في القَلَق... ٦٥
عدَمُ جَبْر النَّفسِ علىٰ الطَّاعاتِ المَندوبَة حالَ الفُتورِ ٦٦
الحَذَر من التَّوَسُّع في المُباحِ حالَ الفُتور............................ ٦٦

اليَقَظة والصِّدقُ في مُراقَبة النَّفسِ. ٦٨
البُعدُ عن فِتَن الشَّهواتِ.........................٧١
الدعاء بتجديد الإيمان في القلوب.........................٧٧
الذِّكْر. ٧٧
تفقُّدُ الصَّالِحين ومُجالَسَتُهم. ٨١
العِلمُ عن الله جَلَّوَعَلَا ٨٢
الصبر علىٰ العبادة. ٨٣
الخوف من النار. ٨٦
الباب الثاني: الانتِكاسُ ٨٩
فصل في تعريف الانتِكاس ٩١
فصلٌ في أَنواعِ الانتِكاسِ ٩٦
الانتِكاسُ عن الإِسلامِ إلىٰ الكفر. ٩٦
الانتِكاسُ عن السُّنَّة إلىٰ البدعة. ٩٩
الانتِكاسُ عن الطَّاعة إلىٰ المَعصِيَة........................١٠٢
فصلٌ الفَرْق بين الفُتورِ والانتِكاسِ........................١٠٣
فصلٌ في أَسبابِ الانتِكاس عن الإِسلامِ والوِقايَة منه ١٠٦

أَسبابُ الانتِكاسِ عن الإِسلامِ ١١١
الجهلُ بحَقِيقَةِ الإِسلامِ. ١١١
أَلَّا يوفَّق العبدُ إلىٰ عالِمٍ يُرشِده ويَهدِيه. ١١٦
فتنة الشبهات. ١١٨
عِلاجُ هذه الشُّبُهات العَقَدِيَّة الدِّينِيَّة ١١٩
أ- الابتعاد عن سماع الشبهات................................ ١١٩
فإن استمع إلىٰ الشبهة وألقيت في قلبه فعليه:
ب- التجرد من الهوىٰ:....................................... ١٢٢
ج- العُلمَاء هُم المَخرَج من المِحنَة.............................. ١٢٢
د- حُسن السُّؤال نِصفُ العلم. ١٢٣
هـ- التضرع إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا ١٢٣
فتنة الشهوات.. ١٢٤
فصلٌ في أسبابِ الانتكاس عن السُّنَّة والوِقايَة منه ١٢٨
تمهيد:
التعرُّض للفتن... ١٢٩

مُجالَسَة أهلِ البدع.. ١٣١

حظُّ النَّفسِ وأَثَرُها في ردِّ الحقِّ والرُّكونِ إلىٰ الباطل. ١٣٧

الإِعجابُ بالرَّأي والتَّقدُّم بين يديْ أهلِ العلم. ١٣٩

الجهل بالسُّنَّة.. ١٤٢

طباع السوء. ١٤٨

فصل في أسباب الانتِكاسِ عن الطَّاعة والوِقايَة منه ١٥١

الجهلُ بالله جَلَّوَعَلَا وبنِعَمِه علىٰ العبد. ١٥٢

دَسِيسَةُ السُّوءِ.. ١٥٤

ذُنوب الخَلَوات. ١٥٦

ضعفُ الإيمان وعدَمُ تعهُّدِه بالرِّعاية اللَّازِمَة. ١٦١

صحبة السوء. ١٦٣

الانشِغالُ بالمَفضُول من الأعمال. ١٦٥

خَاتِمَةٌ عَن الِاسْتِقامَة والنَّشاط ١٦٧

جدول محتويات الكتاب.. ١٧٥